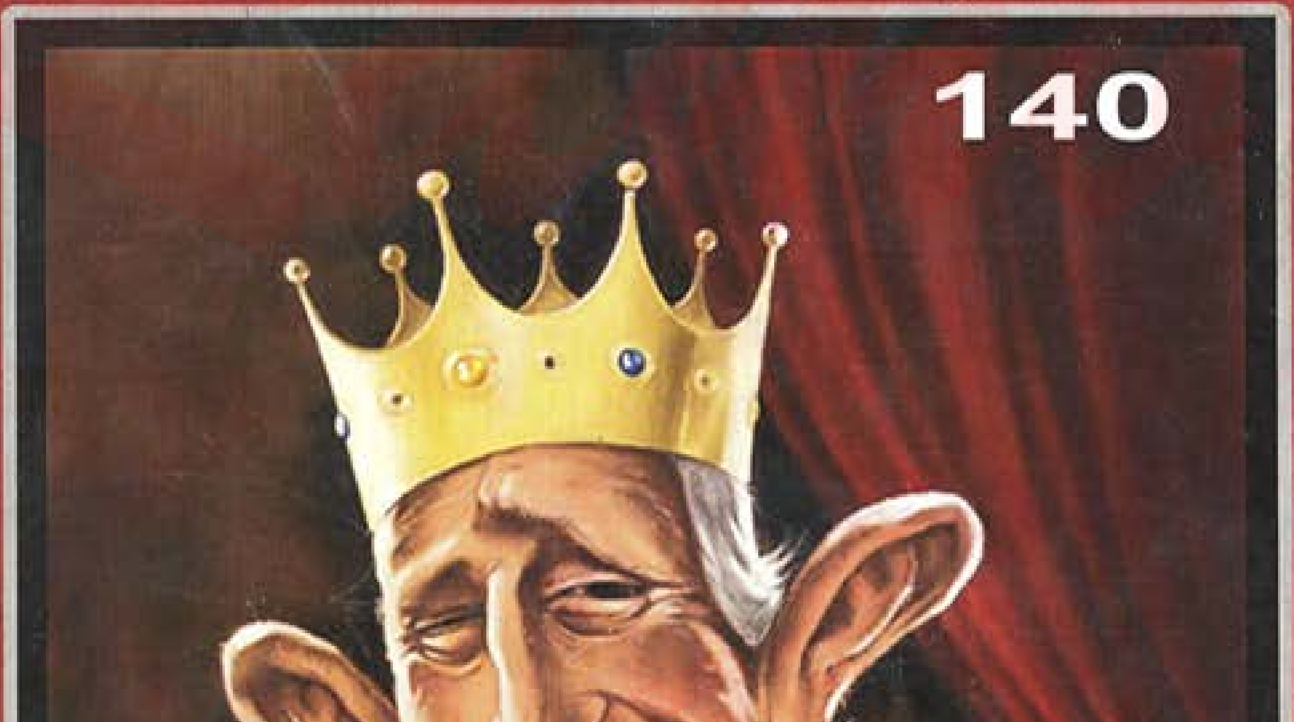
د. نبيل فاروق

Dr. NABIL FAROUK



عزبة أبوهم

دار دَوِّنْ



Dr. NABIL FAROUK

لا تقرأ هذا الكتاب !!!

يامن تذوب عشقاً في نظام حكم إلى حد هوسٍ يعميك عن أخطائه وسلبياته ...

يامن لا يؤمن بحرية الفكر وقيمة المصارحة ...

يامن يرى صالحه فى مسايرة ومنافقة نظام مستبد ...

يامن ينتمى إلى فكر أمني عتيق لا يؤمن إلا بالشومة والبلطة ...

يامن راهن على أن دوام الحال ليس من المحال وليس لله سبحانه وتعالى وحده ...

أرجوك ... لا تقرأ هذا الكتاب أبداً

عزبة أبوهم

د .نبيل فاروق

الطبعة الأولى

دار دَوِّن للنشر والتوزيع

المقدّمة

سأل طفل اباه : ما معنى الفساد السياسي ؟!!

فأجابه : لن أخبرك يا بني لانه أمر يصعب عليك فهمه واستيعابه في هذا السن لكن دعني أقرب لك الأمر ... أنا أصرف على البيت لذلك فلنطلق علي اسم الرأسمالية ... و أمك تنظم شؤون البيت لذلك سنطلق عليها اسم الحكومة ... و أنت تحت تصرفها لذلك فسنطلق عليك اسم الشعب ... و أخوك الصغير هو أملنا فسنطلق عليه اسم لمستقبل ... أما الخادمة التي عندنا فهي تعيش من ورائنا لذا سنطلق عليها اسم القوى الكادحة ... اذهب يا بني وفكر عساك تصل الى نتيجة...

و في الليل لم يستطع الطفل ان ينام ... فنهض من نومه قلقاً و سمع صوت أخيه الصغير يبكي فذهب اليه فوجده قد بلّ حفاضته ... ذهب ليخبر أمه فوجدها غارقة في نوم عميق ولم تستيقظ . و تعجب أن والده ليس نائما بجوارها فذهب ليبحث عن أبيه ... لكنه سمع أصواتاً عجيبة فى حجرة الخادمة نظر من ثقب الباب ليجد أباه معها !!

و في اليوم التالي قال الولد لأبيه : لقد عرفت يا أبي معنى الفساد السياسي ... سأله الأب : وماذا عرفت ؟

أجابه الولد " عندما تلهو الرأسمالية بالقوى الكادحة وتكون الحكومة نائمة في سبات عميق فيصبح الشعب قلقاً تائهاً مهملاً تماماً بينما يصبح المستقبل غارقا في القذارة ... هذا مافهمته عن السياسة يا أبي مما رأيته بالأمس "

د.نبيل فاروق

الجزء الأول
(مصر بتاعتهم)

الديناصورات

فى البداية حكمت الديناصورات الأرض هكذا يقول العلم الحديث المبنى على دراسات ومشاهدات ومراجعات وتراكمات لسنوات من البحث الميدانى والعمل الشاق والديناصورات كانت لأيام مجدها . قوية . ضخمة . شرسة . وحشية . ولكنها كانت تمتلك رءوساً صغيرة نسبة إلى حجمها الضخم وعقول أصغر لم تؤمن لها سبيل التطوّر والتقدّم فاعتمدت لضعف عقولها على قوة أجسادها وشراستها وسيطرتها على ما حولها .

ولكن كل هذا لم يمنحها القدرة على البقاء عندما سقط عليها نيزك من السماء وأفسد مناخ الأرض لسنوات طوال عجزت خلالها عن تأمين عيشها في ظل الطقس الجديد لأنها لم تعتمد يوماً على عقلها أو لم تسع لحظة إلى التطوّر والعالم الجديد كان يحتاج إلى عقول ذكية متطوّرة وليس إلى أحجام ضخمة متوحشة .
لهذا انقرضت الديناصورات..

وظهر الانسان على وجه الأرض ... وكانت بداية الحضارة ... الحقيقية... والتاريخ الطبيعى الذى لخصناه فى سطور قليلة لا يختلف كثيراً عن التاريخ البشرى الذى يتحدث عن الماضى ولا حتى عن ايامنا هذه التى نعانيها جميعاً .

فنحن بالفعل نعيش عصر الديناصورات ... مازلنا نحيا فيه كما سترون لو تلفتم حولكم !! ديناصورات ضخمة أنيابها انتخابات مزوّرة وسلطات غير شرعية ومخالبها أجهزة أمن شرسة وحشية بدلاً من أن تخدم الشعب وتصبح جزءاً منه ارتضت أن تكون مخلب فاسد لنظام أكثر فساداً لا هم لها طوال الوقت سوى قمع الشعب وإرهابه وإجباره على قبول حكّام فرضوا أنفسهم عليه فرضاً حتى اخر لحظة فى اعمارهم التى تطول دوماً حتى تقصف أعمارنا نحن.
كل من يقودون الأمة ديناصورات فى كل المجالات !!

* * *

راجع كل مشكلاتك ومتاعبك وحقوقك الضائعة فى مصر وستدرك بسرعة أن السبب هو أن من يحكمون كل شئ حولك هم ديناصورات !!
وهذا لا يتعلق بأعمارهم فى المقام الأول ولكن بعقولهم ونظرتهم الأنبوبية المحدودة التى تعلموها فى الستينات ومازالوا يصرون على تطبيقها حتى يومنا هذا على الرغم من ان العالم حولهم يتغيّر ويتبدّل ويتطوّر وينتقل إلى حضارة القرن الحادى والعشرين وهم مازالوا بعقولهم لم يتجاوزوا ستينيات القرن العشرين..
وهذا أمر طبيعى .... لأنهم ديناصورات ... ديناصورات شديدة الضخامة فى مناصبها شديدة الشراسة بسلطتها شديدة الوحشية بسطوتها وأجهزتها القمعية

صغيرة الرءوس بفكرها المحدود ضعيفة العقول بذلك الماضى الذى تعيش فيه وترفض تطويره إلى الحاضر وبالتالى يستحيل أن تمتلك نظرة مستقبلية..

ديناصورات فى كل موقع وكل مكان وكل إتجاه . ديناصور فنى لا يرى الفن إلا فى كل قديم فحسب ويرفض فى شدة وعنف كل جديد بل ويتهم الفكر الجديد بأنه تافه وسخيف فقط لأنه عاجز عن فهمه أو التعايش معه . ديناصور آثار يبلغونه أن بعضهم التقط صوراً خليعة فى منطقة أثرية فيصدر قراراً فريداً من نوعه بين كل المناطق الأثرية فى الدنيا بمنع التصوير . ديناصور أمنى يعجز عن فهم تكنولوجيا العصر الحديث فيمنع استخدامها وكأن بإمكانه هذا ويهدر وقته وطاقته فى محاربة العلم والتطوّر بدلاً من أن يستفيد بهذا فى تحقيق أمن حقيقى للشعب الذى ينفق عليه ويفتح بيته . ديناصور أدبى يرفض الإعتراف إلا بأدباء الماضى ويصر على أنهم الأعظم وعلى أن مصر لم تعد ولّادة ويستحيل أن تنجب أفضل مما أنجبته فى الماضى وطبعاً ديناصور سياسى ..... !!!

* * *

الماضى كان ذاخراً بعشرات الأنواع من الديناصورات من مختلف الأشكال والأنواع كان أخطرها وأشرسها وأكثرها عنفاً هو التيرانوساورس وهو ديناصور عنيف ضخم الحجم

صغير المخ حاد السمع ضعيف البصر قليل الذكاء .
والحاضر يذخر أيضاً بعشرات الديناصورات فى مختلف المجالات وعلى رأسهم ديناصورات السياسة الذين لا يختلفون كثيراً عن ذلك التيرانوساورس القديم ..

إنهم يتحكمون فى شعب عظيم قادر على أن يصنع منهم عمالقة فى الدنيا لا تنمحى ذكراهم أبداً وعلى الرغم من هذا وبدلاً من أن يمنحوا هذا الشعب ما يستحقه من احترام وتقدير وعناية ورعاية فهم يصرون على ان يحكموه بالحديد والنار لا أن يحكموه بالحق والعدل والقانون .
إنهم ضخام السلطة والسطوة والقوة ضئيلوا القدرة على كسب حب واحترام شعبهم ليس لديهم صبر على معالجة الأمور بالسياسة والحكمة لذا فهم يلقون الأمور كلها إلى الأمن ويطالبونه بحلول حاسمة وسريعة لها ولأن الأمن أيضاً ديناصوري النزعة ولا تحكمه قوانين تحمى المجتمع منه ومن أسياده الديناصورات الكبار فهو يلجأ مباشرة إلى العنف والقوة والقهر فيضرب ويبطش ويعتقل ويسجن دون اتهام أو شرعية والديناصورات الكبار منحوه قانون طوارئ طويل التيلة لا ينتهى أبداً ويوافق على مده دوماً أتباع الديناصورات الذين يحتلون مقاعد الشرعية بلا شرعية لأن الديناصورات لم تسمع بعد عن الحرية والديموقراطية والانتخابات الفعلية أو سمعت ولم تستوعب عقولها الديناصورية الأمر خاصة وأنها قد تربّت على مبدأ ديناصورى يقول ان الشعب مجرّد وجاهه

اجتماعية للحكام وليس له رأى أو اهمية اللهم إلا أن يجتمع ويصفق ويظهر فى الصور وكانه يؤيد الحكومة التى تكبس على نفسه !!

* * *

الفكر الديناصورى فكر محدود بمقدار صغر عقول الديناصورات وإصرارها على عدم التقدّم أو التطوّر لذا فكل ديناصور يتصوّر أنه سيحكم الأرض إلى الأبد وأنه بدونه سيضطرب نظام الكون وينسى دوماً أن القبور مكتظة بأولئك الذين ظنوا أن الحياة لن تسير بدونهم ولكنها سارت وتقدمت وتطورت وفنى الديناصورات للأبد !!
ومصر الأن تحاول اللحاق بركب الحضارة والتطوّر ومواكبة القرن الحادى والعشرين ولكن الديناصورات يمنعونها ويجذبونها إلى الخلف فى قوة وإصرار ويتحججون تارة بالإرهاب وتارة أخرى بالأمن القومى وتارة ثالثة بالحفاظ على مصر التى يخربونها ويدفعونها إلى التخلّف ليل نهار فقط ليحافظوا على أمنهم الشخصى وبقائهم فى السلطة وكتمانهم على أنفاسنا ولأنهم ديناصورات فمن المستحيل أن تقنعهم بقصور فكرهم وعقم أسلوبهم على المدى البعيد فالديناصورات لم تقنع بخطأ تخلّفها إلا حينما اتاها الموت وهى فى بروج مشيدّة ..
الديناصورات ستقاوم وتحارب وتغضب وتعتقل وتسجن وتضع أمام الناس ألف مبرّر ومبرّر لهذا وستطلق كلاب

أمنها لتعض كل من يعارض وتنشب مخالبها فى لسان كل من يعترض .. ولكن كل هذا لن يجدى .. أكاد اسمع ضحكات الديناصورات وهى واثقة من أن كل هذا عبث فى عبث وأنها ستبقى للأبد تماماً مثلما بقى شاه إيران ورئيس العراق . ستبقى حتى يأتيها ذلك النيزك الذى لا تتوقع قدومه أبداً ..

ساعتها وعلى الرغم من إرادتها ستفنى الديناصورات وتباد من الأرض ..

وعندئذ فقط سيظهر الانسان فى مصر وستبدأ الحضارة الحقيقية !!

* * *

قراءة مسبقة للتاريخ

نحن الآن فى زمن انتهى فيه عصر هذا النظام وسقط كما سقطت كل النظم من قبله وضاع جبروته وانتهت مرحلة قمعه وسلطاته الديكتاتورية ونظمه الأمنية الفاشية التى لا تؤمن لحظة واحدة بالحرية وذهبت سطوة ديناصوراته وراحت قوتهم وجاء عصر جديد أياً كانت ماهيته وتغيّر فيه رؤساء الصحف القومية وأتى غيرهم يؤيدون النظام الجديد ويعتنقون أفكاره أو على الأقل يتظاهرون بذلك !!

القادم الجديد أياً كان سواء من نتوقّعه وننتظره جميعاً أو من لا يتوقّعه أحد سيحاول فى البداية كسب التأييد الشعبى وحشد الجماهير حوله لذا فمهما كانت أفكاره الحقيقية التى لم يسفر عنها بعد سيسعى إلى منح الشعب المزيد من الحرية أو يتظاهر بذلك على الأقل لذا سيصدر عدة قرارات هامة فى البداية .. قرار باعتبار المواطن المصرى مواطناً من الدرجة الأولى الممتازة وتكييف كمان وفور إصداره هذا القرار ستخرج مانشيتات الصحف القومية فى الصباح التالى لتعلن لنا ان عصر السيادة الحقيقى قد بدأ وأن المصريين سيصبحون ولأول مرة سادة على أرضهم وأن القادم الجديد هو بابا وهو ماما وهو الدنيا

كلها وحتى تؤيد الخبر بالمعلومات ستفتح حتماً ملف هذا العصر وملف جبروته وسطوته وقساوته ..الخ..الخ...الخ

سيكتب من تدلّهوا بالأمس فى ذكر محاسن النظام يصفون كيف كان نظاماً جعل البلد فى حالة فوضى وترك الحبل على الغارب لأعوانه وأتباعه فسعوا فى الأرض فساداً وحصدوا دون حق جهد وعرق مال هذا الشعب وافلسوه ليثروا وجوّعوه ليتخموا وعروه ليكتسوا وقهروه ليستبدوا وكيف أنهم صنعوا من مصر دولة بوليسية للأمن فيها اليد العليا على كل شئ وكل شخص حتى المناصب العلمية التى لا تمنح إلا بعد الموافقة الأمنية لا العلمية !!

وربما يكتب البعض مذكراته التى يظهر فيها بصورة البطل و...... ولهذا تكملة.

* * *

بعد أن ينتهى عصر هذا النظام وهو حتماً سينتهى سيسارع الكثيرون لكتابة ونشر مذكراتهم كالمعتاد وسنكتشف فجاة انهم جميعاً كانوا ضد الفساد والرشوة حتى اكثر المرتشين والفاسدين منهم وأنهم كانوا من الشجاعة بحيث أفصحوا عن هذا وأن كل منهم كان يقول للأعور أنت أعور فى عينه (العوراء طبعاً) ولكن المشكلة أن النظام كان (طبعاً) مصاباً بضعف بصرى جعله غير قادر على السمع فلم ينتبه إلى ما يقال وانه هو الوحيد الذى كان . وكان . وكان....

والميزة الوحيدة لهذه المذكرات أن كل واحد لكى يثبت حسن سيرته سيفضح سيرة الأخرين ويقص المستخبى ويفضح بلاوى البلاوى على عينك يا تاجر ....

وسيدرك الجميع أي عصر كان هذا ....

رئيس مجلس الشعب الجديد سيروى كيف كانت تتخذ القرارات وتصدر القوانين وربما ألف كتابا عن عدم دستورية التعديلات الدستورية الكابحة للحريات !!

وزير الداخلية الجديد سيجرى مقابلات تليفزيونية يؤكد فيها انه ليس مثل سلفه وانه يؤمن بالحرية وان أهم شئ لديه هو حسن معاملة المواطنين فى أقسام الشرطة وأن مرحلة زائر الفجر قد ولّت وانتهت بلا رجعة !!

ووزير الإعلام لا داع لأن يفعل شيئاً فأى شئ عادى سيفعله سيكشف المصيبة والكارثة !! يكفى أن ينتشل التليفزيون المصرى من مستنقع النفاق الزائد وتقبيل قعر جزمة النظام وأعوانه أما وزير المالية الجديد فستكون أمامه أكبر مشكلة يواجهها وزير مالية على الإطلاق !!

* * *

وزير المالية القادم سيواجه أكبر مشكلة فى النظام الجديد فسلفه خرب الدنيا وأغرق العباد فى خضم من الضرائب والمكوس على طريقة نوبار باشا إللى مش غال قوى وأى نظام قادم لن يخفض أو يلغى أية ضريبة لأن النظام الحالى سيترك البلد على الحميد المجيد وربما يبيع حتى الحديدة لن

يدفع ثمنها حتى ولو كان إسرائيلياً ابن إسرائيلى ووزير المالية الجديد عليه تدبير موارد مالية والنظام الجديد لا يرغب فى ان يبدأ فترة حكمه بتغيير قوانين العمل والإسكان وكل فلوس البلد أصبحت فى سويسرا أو جزر الكنارى فماذا يفعل؟!

ليست لدى فى الواقع إجابة على هذا السؤال ولست أظن ستكون لديه فبدون ان نعتاد الأنتاج والعمل لا فائدة ولا أمل ...

المهم ان النظام - أياً كان- سيبدأ عهده بتأييد شعبى وبنظرة مستقبلية وربما برغبة فعلية فى الإصلاح والتطوير...

ولكنه لن يضع قوانين مؤيّدة لهذا وإنما سيحرص فى كل قوانينه على ضمان استمرار سيطرته على الشعب فى كل الإتجاهات بناءاً على رأى مستشارى السوء الذين سيظهرون على الفور ليلتفوا حول النظام الجديد وليضمنوا مكاناً بعد ذبل النظام القديم ورجاله فى مذبلة البلد ومذبلة التاريخ ...

وهنا ستبدأ دورة الحكم المعتادة . من البداية ...

القادم الجديد سيحاول التعامل بروح جديدة ولكن هذا لن يحقّق مصالح الملتفين حوله لذا فسيبذلون قصارى جهدهم حتى يقنعونه بالعودة إلى نظام سلفه وبتأمين نفسه والخوف من الشعب لأن الشعب المصري من وجهه نظرهم لا أمان له وستؤيدهم القوى المستفيدة وتبدأ محاولات السيطرة على القادم الجديد وغسل مخه

وتنظيفه بالصابون والكلور وبدء العمل عليه من الزيرو. و...
وهنا تبدأ الحدوتة

* * *

على الرغم من أن القادم الجديد أياً كانت هويته سيرغب حتماً فى كسب تأييد الشعب إلا أن من سيحيطون به سواء أكانوا من بقايا هذا العصر أو من أعدائهم سيحذرونه من هذه الطيبة الزائدة وسيطلبون من ألا يأمن كثيراً لهذا الشعب وأن الزمن لم يعد زمن عبد الناصر الذى لم يقابل الجماهير أبداً فى سيارة مغلقة مصفحة ولا زمن السادات الذى كان يجوب البلاد فى سيارة مكشوفة وليس حتى زمن الاحتماء بحب الشعب على الرغم من أنه لا السادات ولا ناصر لقيا مصرعهما وسط الشعب فجمال مات فى فراشه والسادات وسط جيشه ...

وبالطبع سيرتب له الأمن عشرات المؤامرات التى تحاك ضده والتى يقودها الحاج على القهوجى والواد حكشة صبى الميكانيكى وعلى حلمبوحة التربى وطبعاً سيقبض الأمن اليقظ على المتآمرين وسيعترف حكشة بأنه قائد السلاح العسكرى وحلمبوحة بأنه مسئول الاتصال بالجهات الأجنبية فى طلخا وديروط البلد أما الحاج على فهو مسئول التثقيف بدليل أنه يحمل شهادة نحو الأمية ...

وسيقلق القادم الجديد ويخاف على حياته وهم طبعاً سيؤكدون له أن البلد لا يمكن أن يحيا بدونه. على الرغم من

أن البلد مازال حيا وكل من حكموه تحت التراب ظاهرياً أوفى جهنم الحمرا فعلياً والله أعلم ...

وهكذا يركب القادم الجديد سيارة مصفحة وينعزل داخلها عن الجماهير ورويداً رويداً يعتاد هذا ولا يعود يطيق حتى معرفة ما يجري في البلد. فيطيب الحال للبطانة وتبدأ في تصفية حساباتها مع سادة الأمس الذين صاروا أي كلام اليوم . ومن ثم يعود الفساد وتزداد الرشوة انتشاراً ويغرق البلد مرة أخرى فى مستنقع أكثر عمقاً ...

سادة اليوم سيصبحون مهملي الغد وكل من ظلموه سيجد فرصته للانتقام والتاريخ سيعيد نفسه وتمضى الأيام ...

هل يبدو لكم هذا خيالياً أو ساخراً ؟!.. اقرأوا التاريخ وستدركون أنه ليس كذلك وأن تاريخ الأمس هو مجرّد قراءة مسبقة ... لتاريخ الغد !!!

* * *

مصر بتاعتهم

تاريخ مصر تاريخ جميل حافل بالاحتلال والاستعمار من الهكسوس إلى البيزنطيين إلى الرومان والعثمانيين والفرنسيين والانجليز ثم حركة يوليو !!!

ومنذ حركة يوليو ١٩٥٢ بالذات شهد تاريخ مصر أكبّر تحوّل جذرى للغاية ... ففى كل الحالات السابقة كان المحتلون يأتون من الخارج وكأى محتل غاصب كانوا يسعون لكسر إرادة الشعب وتحطيم مقاومته وإخضاعه لإرادتهم وكان هذا يحفز الشعور الوطنى فى أعماق الجميع فتحمى الدماء فى عروقهم ويلتهبون حماساً ويشعرون بمصرهم ومصريتهم ويقاومون المحتل ويقاتلون ويضحون ويموتون حتى تستعيد مصر حريتها وكرامتها ... هذا لأنهم كانوا يشعرون وبقوة أن مصر مصرهم .كرامتها كرامتهم .وعزتها عزتهم وحريتها حريتهم .ومجدها مجدهم .... كانت مصر على الرغم من كل احتلال حقاً مصرهم ...

ثم جاءت حركة يوليو من الداخل وسيطرت على البلد ووضعت كل شئ فى قبضتها . وأطلقت عشرات الشعارات الرنانة عن الحرية والمساواة وتكاتف قوى الشعب العاملة والديموقراطية . وبأن مصر ولأول مرة يحميها مصريون ... وصدّق الناس

ومن هنا بدأ العصر المرير ... عصر الاحتلال الداخلى الذى يأتى فيه الاحتلال من الداخل ويقوم فيه مصريون باحتلال

مصريين والسعي للسيطرة على مقاديرهم وكسر إرادتهم وسحق حريتهم وتدمير إحساسهم بمصريتهم ...

اعتبرت الحركة أن مصر غنيمة فازوا بها فى معركة سهلة قصيرة خططوا لأن تستمر شهراً وتنتهي بإعادة محمد نجيب إلى موقعه فإذا بهم فى يوم وليلة . يمتلكون البلد كلها ... وكانت تلك هي البداية !!

* * *

رجال حركة يوليو من أكبرهم إلى أصغرهم لم يجل بخاطرهم لحظة واحدة أنهم سيسطرون على مقادير بلد كامل بل ولم يستعدوا أبداً لهذا ولكن ضعف رجال الحكم آنذاك وخضوعهم لذلك الاحتلال الداخلي ومحاولاتهم الدءوبة لكسب ود من قاموا بالحركة حرَّكت نوازع القوة والسيطرة فى نفوس القائمين بها أضف إلى هذا لذه السلطة التى لا تفوقها لذة كما يؤكد خبراء علم النفس لأنها تمنح صاحبها بالتبعية كل الملذات والشهوات الأخرى وهذا ما أثبته رجال الحركة وأتباعهم عندما حوّلوا البلد إلى معتقل كبير وكمموا الأفواه وقهروا الإرادة وعذَّبوا النفوس وانتهكوا الأعراض وقطعوا الرءوس التى طلبوا منها أن ترتفع بحجة أن عهد الاستبداد قد مضى . لكنه فى الواقع كان قد بدأ !!!

ومع القهر والقمع والطغيان الذى لم تر مصر مثيلاً له حتى أيام غزوات التتار عرف المصريون ولأول مرة أن الاحتلال

الداخلي أعنف وأشرس وأضل سبيلاً من الاحتلال الخارجي . ففى الأخير يشعر المصرى بشرعية المقاومة . بينما مع الأوَّل يتهمونك بالخيانة العظمى ومحاولة قلب نظام الحكم إذا ما قاومت !!

وأدرك المصريون الحقيقة المرة ... أن مصر لم تعد مصرهم ... أصبحت مصر ملكاً لمن استولوا على السلطة فيها بالقوة والقهر والقمع والبطش ...

أصبحت مصر بتاعتهم ... مصر التزوير الانتخابى والخداع اللفظى والشعاراتى وأمن القمع والقهر والإرهاب وخطب الخداع واللف والدوران ... لم تعد مصر للمصريين ... أصبحت بتاعتهم ... بتاعة النظام وبس !!

* * *

تحوَّلت مصر فى العهد الناصرى إلى آلة طغيان جبارة يحكمها رجال اعتبروها عزبة أبوهم واعتبروا شعبها عبيداً وجوارى خُلقوا فقط لخدمتهم والويل لمن يعترض أو يتكلم أو حتى يفكِّر أو يحلم فى سره بالمقاومة ..

ولأن الشعب أدرك أن مصر لم تعد له فقد راح يقاوم السلطة المحتلة بوسائله الضعيفة التى لم يفهم أحداً سببها حينذاك فصار يتلف كل ما تملكه الحكومة من الطرق وحتى مقاعد الأتوبيسات لأن أحداً لم يعلِّمه أن هذا كله مال عام وأن المال العام ملك له باعتباره من الشعب ولكنه لم يكن حتى ليصدِّق هذا لأن حكام الاحتلال صاروا

يملكون كل شئ فى البلد وهذا يعنى أن المال العام مالهم وعليه هو أن يحرمهم منه بأى ثمن !!
ولأن مصر بتاعتهم وليست بتاعته فقد قرَّر أن يلقيها من قلبه إلى ما خلف ظهره فلم يبال بالعمل أو الإنتاج أو التحسين أو حتى مواعيد العمل الرسمية ...
وهكذا ضعف الإنتاج وتضاءل الاقتصاد وظهرت الفجوة بين المواطن والدولة وتغيرت المفاهيم فصار رجال الشرطة هم أعداء الشعب وليسوا فى خدمته وأصبح أى مسئول فى أى منصب هو فرعون زمانه وأصبح الفساد والتزييف والتزوير والرشوة والمحسوبية هم أساس التعامل واتجهنا من سيئ إلى أسوأ . حتى جاء اليوم المشئوم ... يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧ و .....

* * *

عندما بدأ العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ كان رجال حركة يوليو يسيطرون على كل شئ وعلى الصحافة والإعلام والرأى ويخدعون أو يتصورون أنهم يخدعون الشعب بعباراتهم الفخمة وكلماتهم البرَّاقة وكذبهم المكشوف ..
ولأن الكذب والبهتان والتزوير بتاعهم لا يمكن أن يؤدِّى إلا إلى ضعف الدولة وعجزها فقد جاءت إسرائيل واكتسحت سيناء وهزمت الجيش المصرى شر هزيمة ولولا الانذار الأمريكى السوفيتى لكان الإحتلال الإنجليزى قد عاد مرة أخرى إلى أرضنا بسبب فساد حكامنا ..

وعلى الرغم من هذا وكما احتفل صدام حسين بأم المعارك احتفلنا نحن بعيد النصر وكذبنا على أنفسنا وكذبوا هم على شعبهم وأوهموه بأنهم قد انتصروا ببراعتهم وذكاءهم بل وتمت ترقية قائد الجيش المهزوم إلى رتبة المشير احتفالاً بنصر زائف لم يتحقق !!

ولأن مصر بتاعتهم لم يفتح أحداً فمه أو يذكر الحقيقة أو يتساءل عن هذه السابقة المدهشة فى التاريخ حيث ينهزم قائد عسكرى فتتم ترقيته ولأن القائد ورجاله على الرغم من هذه المظاهرة الكاذبة كانوا يعرفون الحقيقة ويدركون أنهم قد انهزموا شر هزيمة فقد توترت أعصابهم وأفرغوا غلهم فى شعبهم الذى رأوا ضحكاته وسمعوا سخرياته على الرغم من كل ما فعلته أبواقهم الكاذبة فازدادوا شراسة وعنفاً وعاشت البلاد تحت شعار (لا شئ يعلو فوق صوت المعركة) أسود أيامها وانقهرت الإرادة أكثر وأكثر والأبواق التى هتفت بنصر زائف ازدادت نفاقاً ورياءاً وأصبحت مصر بتاعتهم فعلاً ... وسلم لى على النكسة !!

* * *

فجأة وبعد أن أطلقوا على الهزيمة اسم الدلع (نكسة) وبعد أن رقص عضو مجلس أمة محترم لأن جمال عبد الناصر قرَّر العودة إلى الحكم وبعد قهر و طغيان واستبداد فوجئت مصر كلها ذات ليلة بنائب الرئيس آنذاك - أنور

السادات- يخبر الأمة وينعى إليها زعيمها . جمال عبد الناصر !!

مات جمال . وجاء أنور السادات من بعده وهو يدرك كم الفساد الرهيب الذى تعانى منه الدولة ولكن قبضته كانت أقوى بطبيعة الحال بعد تصفية عبد الحكيم عامر وانكسار الجيش عقب الهزيمة وحالة الضياع التى يعانى منها الشعب ويحلم فيها بيد تنتشله من ذلك المستنقع ...

جاء السادات وحوله جبابرة مصر وقادة كل مراكزها الحيوية وكلهم يعتبرونه مجرَّد خيال مآته يجلس على مقعد المواجهة فحسب فى حين يحكمون هم ويتحكمون كما أعتادوا ... لكن فجأة وفى ليلة واحدة . فاجأ السادات الكل بأنه ثعلب أكثر مما كانوا يتصوَّرون وجمع كل هؤلاء فى سلة واحدة . وخلَّص البلاد منهم وأعلن أنه يبدأ عصر جديد ...

وهللَّ الشعب الطيب الغلبان وتصوَّر أن مصر قد عادت إليه وشاهد السادات يهدم المعتقلات ويحرق أشرطة التسجيل ويحارب الفاسدين ويطلق الحريات ويخطط للبناء ...

وانتشى الشعب وصدَّق لطيبة قلبه أن الحداية بتحدَّف كتاكيت وأن مصر ستعود مرة أخرى للمصريين خاصة وأن سنوات حكم السادات الأولى أوحت بذلك كثيراً !!

* * *

فترة حكم السادات الأولى أثبتت أين تكمن قوة المصريين بالظبط .فما أن أشعرهم السادات بالأمان وبأن مصر هى

مصرهم ولبست مصر المحتلين الداخليين حتى عملوا كالأسود وأعادوا بناء قوتهم وخاضوا حرب أكتوبر ١٩٧٣ بقوة ارعبت عدوهم وحقَّقت لهم نصراً عظيماً وعبوراً مدهشاً وخفقت قلوب المصريين مع علمهم الذى رأوه يرتفع ولأوَّل مرة خفاقاً بنصر حقيقى يحاول البعض تشويهه الآن كجزء من حالة الغضب الحالية وهم لا يدركون أنهم بتشويهه يحكمون على أنفسهم بعار ما بعده عار ...

وارتفعت أعلام النصر خفَّاقة فى مصر وعاش المصريون أعظم لحظات حياتهم وهم يهللون للنصر ويحتفلون بتولية وترقية أول قائد منتصر حقيقى لرتبة المشير وشعر كل رجل وامرأة وطفل فى مصر أن مصر وطنه وبلده وبتاعته .. للمرة الأولى !!

ولكن . ولأن كل هذا يتم بالإرادة السامية وحدها ولأنه لا يوجد دستور حريات حقيقى أو نظام قانونى قوى يحقَّق الأمن والحرية والاستقرار للبلاد والعباد ولأن النظام منذ حركة يوليو أصبح فرعونياً إرادة الحاكم فوق إرادة كل قانون فقد أفلتت أعصاب من منح فى النهاية ولم يحتمل تبعات ما منحه فقررَّ أن ينتقل من المنح إلى المنع ...

ولكن الأمر لم يكن سهلاً إلى هذا الحد فقد يدوم نظام مستبد لسنوات وسنوات ولكن ما أن تلوح لمحة للخلاص منه وينتعش الامل بهذا فى النفوس حتى يصير من المستحيل وشديد الخطر أن يفكر حتى من منحوا تلك

اللمحة عن التراجع عنها .... لذا فما أن ثار السادات وفقد أعصابه وفتح اكبر حملة اعتقالات في التاريخ حتى لاحت النهاية .... وقد كان فعلاً !!

* * *

فى يوم احتفاله بانتصاره ووسط جيشه وقواته وحراسه وكل نظم أمنه ... تم اغتيال أنور السادات ...

سيل الاتهامات انهال من كل صوب والكل راح يتهم الكل حتى من يستحيل اتهامهم ولكن وأياً كانت الحقيقة فقد انتهى عصر السادات بكل محاسنه ومساوئه وكل انتصاراته وتراجعاته وكل حريته وفرعونيتة وحربه وسلامه وبدأ عصر جديد فى مصر ...

عصر كانت بدايته - التى لم تصل إلى نهاية أبداً - هى قانون طوارئ ممتد مستمر يتجدَّد تلقائياً ويبلغ المصريين بوضوح وصراحة ومع استبداد الأمر وهيمنته وسيطرته أن مصر عادت إلى المحتلين ولم تعد مصر بتاعته ... بل صارت وعلى نحو واضح صريح ويجح أحياناً ... مصر بتاعتهم هم فقط !!

غرق الشعب كله فى عصر جعلهم يترحمون فيه كل صباح ومساء وعبر صلواتهم الخمسة على عصري عبد الناصر والسادات وربما حتى على عصر الاحتلال البريطانى !!

عند بداية هذا العصر استبشر الشعب خيراً بقائده الجديد وبخاصة أنه قد بدأ عهده بقرار الإفراج عن جميع المعتقلين

اللذين كان اعتقالهم أحد أهم أسباب اغتيال سلفه الذى انتقاه من بين جميع من حوله ليسلمه الأمانة ويضع بين يديه وفى عقله وضميره مستقبل شعب عظيم .. البداية كانت رائعة ولكن أيضاً بدون الدعامات الرئيسية لأي حكم صحيح ... بدون حريات أو ضمانات أو ضوابط أو سيادة قانون ... وطبعاً التقيل جاي !!

* * *

بدأ عصر مبارك بداية عنيفة للغاية وربما اعنف بكثير ما بدأت به حركة يوليو عصرها فقد كانت البداية هى اغتيال أنور السادات وانطلاق الجماعات الإسلامية فى محاولة لإستغلال حالة الاضطراب التى سادت مصر عقب الاغتيال للسيطرة على الشارع المصرى واسقاط الحكومة ما استتبع عدة إجراءات عنيفة للسيطرة على الموقف ونقل السلطة الشرعية دون إراقة أنهار من الدم أو دون الدخول فى حرب أهلية مدمِّرة ...

ومن هنا كان قانون الطوارئ اللعين الذى كتم على أنفاسنا ووصم عصراً بأكمله بوصمة قد لا يدركها أصحابها الآن لأنهم فى غيِّهم يعمهون ولكنه سيكون وصمة عار لعصر بأكمله يتغنى ليلاً نهاراً بسيادة القانون وهو يحيا لثلاثة عقود كاملة فى ظل قانون طوارئ لا ينتهي !!

وعلى الرغم من تلك البداية العنيفة فقد كان عصر مبارك فى بداياته يبشر بالخير إذ بدا الرئيس رجلاً بسيطاً هادئاً يتروَّى

جيداً قبل اتخاذ قراراته وكان وقتها قريباً من الناس حتى أنه ظهر ذات مرة مع المذيعة نجوى ابراهيم في برنامجها الشهير وقتها (فكَّر ثوان واكسب دقائق) ولبَّى طلب مواطن مصري بسيط . وذهب لزيارته !!

ونام الناس وفى بطونهم شادر بطيخ صيفى أحمر عالسكين متصوَّرين أنهم سيعيشون عصرهم الذهبى فى ظل رئيس لم يتعال عن زيارة مواطن بسيط فى بيته تلبية لرغبته على الرغم من أن قبول الرئيس لدعوة مواطن له لحضور حفل زفافه قد تحوّلت فيما بعد إلى فيلم كوميدى له دلالة سياسية واضحة !!

ثم بدأت الصورة تتخذ شكلاً جديداً مع بداية عصر عنف الجماعات الإسلامية ولجوئها إلى الرصاص لفرض فكرها ووصايتها على المجتمع وعصر الظلام المتمثل فى سيطرة الفكر الوهابي السلفي على الشارع المصري ...

المتابع غير المتحيِّز لعصر مبارك يلاحظ الاخطاء العديدة التى شابت التجربة من بدايتها بدءاً من تولى الرئيس رئاسة أحد الاحزاب فى الدولة فى حين المفترض أنه رئيس لكل الأحزاب وليس رئيساً لحزب واحد . والقول بأن هذا يحدث فى بعض النظم الديموقراطية فهو قولة حق يراد بها باطل ؛ ببساطة لأن النظام لدينا ليس نظاماً ديموقراطياً بل هو نظام أبوى لو ترك فيه الرئيس حزباً وانتقل إلى آخر ستنهال الإستقالات على الحزب القديم وتنهال بنفس عددها طلبات

التحاق بالحزب الجديد وهذا ماحدث بالفعل فى عصر السادات وهو نظام سيادى مائة فى المائة بدليل أن مجلس الشعب المنتخب بالوسيلة التى نعرفها كلنا والذى لم يتغيَّر رئيسه منذ الأزل يجتمع ويتظاهر بدراسة القوانين التى تطلبها الحكومة لضمان السيطرة على الشعب ويوافق عليها فى جلسة أو جلستين فى حين يقضى سنوات فى تأجيل عرض قوانين أخرى تؤثِّر فى مسار امة كاملة لأن الحكومة لم تتقدَّم بها أو لأن الذى تقدَّم بها نائب معارض أو لأنها لن تؤدى إلى السيطرة على الناس وسلب مافى جيوبهم

المهم أن التجربة بدأت بخطأ هام وجوهرى وخطأ بالغ الخطورة ألا وهو قانون الطوارئ ؛ فالحكومة نفسها تعلم أن رجال أمنها ليسوا ملائكة بل مصريين يعانون من عقدة السطوة وسادية السيطرة وإذا ما وضعت فى أيديهم قانون طوارئ دون مواد تحتم الحفاظ على كرامة وآدمية وحرية المواطن وتحاسب بشدة على المساس بها فهم سيتكبرون ويتجبرون وسيصبحون شوكة مؤلمة فى ظهر الشعب الذى لن يبغضهم ويعتبرهم وحدهم أعداء بل ستمتد كراهيته وعلى نحو تلقائى وطبيعى إلى النظام نفسه بحيث سيشعر مع مرور الوقت أن مصر بتاعتهم وليست مصره هو وبمعنى غير معلن أنهم كنظام قد احتلوا البلد ...

* * *

مع بدايات عصر مبارك وعلى الرغم من قانون الطوارئ ومن حالة التجبُّر الذى رافقها او ربما بسببه شهدت مصر أعنف مرحلة عدوانية عقائدية ربما فى تاريخها كله ...

اغتالوا رفعت المحجوب وكان رئيساً لمجلس الشعب وحاولوا اغتيال صفوت الشريف وكان وزيراً للإعلام وكمنوا للافواج السياحية فى محاولة لقتل السياح عقاباً لهم على دخول مصر التى يفترض أن يدخلوها بسلام آمنين واشتعلت الامور حتى ان الأمن قد رفع حالة الطوارئ أكثر وهو الإجراء الوحيد الذى يجيده ويلجأ إليه أى نظام مستبد فانتقلت الجماعات الإسلامية إلى موجة اغتيال رجال الشرطة ومباحث أمن الدولة فرفعت الدولة حالة التحفُّز أكثر وأكثر وصار الصراع بينها وبين الجماعات الإسلامية يتخذ صورة حرب شعواء وقرأنا فى الشوارع والطرقات شعار (قتيل بقتيل) واتخذ الشعب العادى جنباً وبدأ يعتبر الحكومة متمثلة فى رجال أمنها حكومة احتلال طاغية فابتعد عن الساحة كلية واكتفى بالسعى خلف لقمة عيشه وبسب ولعن النظام ليل نهار وبداخله شعور جارف بأن كل هذا عديم الجدوى لأن مصر ليست له ...

مصر بتاعتهم .. بتاعة النظام .. وأعوانه !!

ومع هذه الموجة الأمنية التى تجاهلت تماماً حقوق الإنسان وحتى الحيوان ولم تعد تبالى إلا بفرض إرادتها وسيطرتها على كل شئ وأى شئ لم يعد المواطن العادى يشعر بالأمن أو الأمان وانشغلت كل أجهزة الدولة بمكافحة الإرهاب الداخلى كما أسموه وتجاهلت وظائفها الأصلية كحامية

للشعب وتحوّلت من حاميها إلى حراميها وطمحت فى المزيد والمزيد من السطوة ..

وكان من الطبيعى والحال هكذا أن يلتف الامن بكل أجهزته حول الرئيس وأن يحيطه بسياج حديدى ليس لحمايته بالدرجة الأولى وإنما لعزله عن شعبه وإخافته منه ومنع وصول شكواه إليه ..

* * *

مع السياج الأمنى القوى الذى أحاط بالرئيس كان من الطبيعى أن ينتابه شعور بأنه يحكم شعباً من الأعداء كلهم يتربصون به ويسعون خلفه ويضمرون له الشر وساعد الأمن على تضخيم هذا الشعور وضاعف من إجراءات حماية الرئيس إلى حد المبالغة المقزِّزة إن جاز القول . وصارت تحركاته من أعقد الأمور التى يبغضها المواطن العادى كل البغض لما تسببه له من ارتباك فى حياته ومتطلباته واحتياجاته وتجور على بلد كامل من أجل الهوس الزائد عن اللزوم جداً لحماية أو التظاهر بحماية رجل واحد كما يقول بروس شناير الخبير الأمنى العالمى والذى يصف ما يحدث في مصر بأنه استعراض أمنى يستهدف به الأمن إرهاب المواطن بالدرجة الاولى وإثبات القوة أمام القيادة السياسية المتمثلة فى الرئيس بالدرجة الأولى ممتازة تكييف وفيديو كمان !!

ثم تآزرت أجهزة الدولة كلها لتنافق الرئيس وتفخّم من ذاته وتقنعه بأنه أحكم وأعدل وأرجح وأعظم وأعقل من حكم مصر وأنه ما ينطق إلا درراً وما يأمر إلا عدلاً وما يفكّر إلا صواباً وربما لأن هذا سيجلب عليهم سخطاً شديداً فقد أحجموا عن وصفه بالنبوة والعياذ بالله ..

وفى نفس الوقت الذى كان الكل منشغلاً فيه بالأمن السياسى وبحماية الرئيس وحده صارت الدولة بلا حماية وبدأ الفساد ينمو فيها كرد فعل طبيعى ...

* * *

يقول العامة فى أحاديثهم اليومية إن كبار رجال الدولة يسعون لنشر الفساد فى البلاد حتى يصبح الشعب كله فاسداً فلا يقف أمامهم أحد عندما يفسدون لأن الفاسد لن يحاسب فاسدين أو مرتشين ..

الناس تردّد هذا الكلام فى الشارع ؛ لأنها لا تستطيع تصديق موجة الفساد الرهيبة التى سادت البلاد فى هذا العصر كما لم تسد فى أى عصر آخر إلا إذا كان وراءها كبار البلد الذين اعتبر الناس أن مصر بتاعتهم وأنهم يمتلكونها بكل ما عليها ومن عليها ..

والواقع أن الفساد الرهيب الذى يمتد من القمة إلى القاع صار سمة سيتندر بها التاريخ عن هذا العصر الذى يتحدثون فيه طوال الوقت عن الشفافية وطهارة اليد التى تستحق قطعها وحرقها وكنس تراب الشارع بها . بعد أن

أطلقت موجة فساد لم يشهد لها التاريخ مثيلاً وصلت مع مرور الوقت والانعدام التام للشفافية والحقيقة إلى موجة وقحة . بجحة . لا تراعى حتى المظاهر ولا تحاول مداراته خلف واجهة أنيقة لأن فئة الكبار نفسها صارت واثقة من أن مصر بتاعتهم مش بتاعة الشعب الذى هو فى نظرهم مجرَّد مظهر شيك للحكم وإرادة يستطيعون تزييفها بالقهر والقمع وقانون الطوارئ وخدمه أيضاً إذا استلزم الأمر ..

ولقد بدأ الفساد حذراً ومستتراً وراء شعارات زائفة كما يحدث فى كل النظم الفاشية أو القمعية ثم أدرك بعد وهلة أن أحداً لن يحاسبه مادام الكل منشغلاً بدولة الرجل الواحد التى تجند كل الجهود فيها لحماية رجل واحد فانطلق ..

* * *

غياب الحرية والديموقراطية الحقيقية فى هذا العصر وتحويل البلد إلى دولة مماليك كل مملوك منهم يحظى بحماية واحد من الأكابر أدى إلى حتمية وجود سياسة خاصة تستلزم تدليع هؤلاء المماليك لضمان ولائهم للنظام وهذا التدليع يشمل إغراق العطايا والثنايا ومنح التصاريح والموافقات وغض البصر أيضاً عن بعض التجاووزات البسيطة مثل غرق العبارات وفشل المونديالات وسرقة المال العام وفساد الذمم وغيرها طبعاً !! وهكذا وكرد فعل طبيعى تحوَّلت الدولة إلى إقطاعيات كبيرة يحكم

كل منها مملوك من مماليك النظام يدرك جيداً أن النظام - والنظام وحده - هو الذى يضعه فى مكانه إذا كان من المؤيدين والموالين له ولاءاً كاملاً وعضواً فى حزبه وهو وحده الذى يغدق عليه بلا حساب من أموال الشعب وهو وحده أيضاً الذى سيرفعه من منصبه إذا ما غضب عليه يوماً ..
فلماذا إذن يبالى بالشعب فى روحه أو غدوه ؟!!
إنه مملوك للنظام وليس للشعب ومهمته لكى يحافظ على إقطاعيته أن يضع رأسه فى الطين كل يوم وهو يلعق نعل حذاء النظام وينافقه فى كل صباح ومساء . ثم وبسبب هذا يضع جزمته على رقبة الشعب ويغرس رأسه فى طين المذلة والفقر والحاجة دون أن يطرف له جفن .. لأنه مملوك ..
ولقد بدأت لعبة المماليك هذه معقولة ومع أبدية النظام صارت قوية عنيفة وصار من الواضح أنك كشعب لم يعد لك مكان فى مصر . لأن مصر بتاعتهم .. مش بتاعتك !!

* * *

منذ قيام حركة يوليو شهدت مصر ما يسمى بالفئات غير الخاضعة للمساءلة وعلى الرغم من أن كل النظم التى تعاقبت على حكم مصر منذ ذلك الحين وحتى لحظة كتابة هذه السطور تتغنى بالحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية إلا أن مصر لم تشهد منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢م لا حرية ولا ديموقراطية ولا حتى رعاية اجتماعية صحيحة عاقلة!!

فى البداية كان رجال الحركة . وأتباعهم . ومريدوهم . ووأحبابهم . وأصحابهم . وحتى عشيقاتهم . من الفئات المصنفة بأنها فوق المساءلة . ثم جاء عصر سيادة القانون كما أسموه وتقلّصت قليلاً فى بدايته الفئات غير الخاضعة للمساءلة . ثم عادت الأمور إلى مجراها وصارت هناك فئات محدودة فوق المساءلة ....
حتى جاء عصر مبارك . عصر استقرار الفاسدين فى مقاعدهم واستمرار المتجاوزين فى مقاعدهم وتشبث النظام بالسلطة على حساب اى شئ آخر ....
جاء عصر المماليك . الذين أصبحوا جميعهم فوق المساءلة ولم يعد من الممكن . ليس محاسبة المسئول الفاسد . بل مجرَّد توجيه أصابع الاتهام إليه ..... لأنه مملوك أو يتبع أحد المماليك . والمماليك كلهم عن دبرة أبيهم فوق المساءلة ....
ولأن فئات كثيرة قد اندرجت تحت بند عدم المساءلة كان من الطبيعى أن تشهد مصر أكبر عصور الفساد فى تاريخها كله . حيث لم يعد الفساد قاصراً على الصغار وإنما صار لعبة الكبار الذين يحتلون أرفع وأدق المناصب . ويملكون اتخاذ القرارات المؤثرة فى اقتصاد وحياة شعب ووطن وأمة بأكملها.
ونماذج الفساد لا حصر لها . والدولة والنظام يعرفونها جيداً . ولكن فى عصر المماليك صار الكبار أشبه بتنظيم إجرامى . منهم بحكامه !!

* * *

تجار المخدرات الكبار يلعبون لعبة مدهشة يسمونها لعبة توازن الصراع حيث يقومون بعمليات تهريب كبيرة يربحون منها المليارات . ثم يلقون بعض صغار رجالهم فى عملية أو عمليتين بعدد قليل من الملايين ويرشدون عنهم رجال شرطة مكافحة المخدرات لكى يتم إلقاء القبض عليهم .
ويشعر رجال المكافحة بالارتياح فتستمر اللعبة ....
وهذا بالضبط ما يلعبه نظام المماليك الحالى ... الفساد يستشرى فى كل المجالات . وأراضى الدولة ومصانعها وشركاتها تباع بربع ثمنها ومن يبلغ عن هذا يعاقب بشدة . وتضيع على مصر مليارات بسبب فئات غير خاضعة للمساءلة . ثم يلقى لنا النظام كل حين وآخر برجال من قعر اللعبة أو ممن غضب عليهم فى قضية فساد تتناولها الصحف وتهلّل لها ويثبتون بها للرئيس أنهم فى قمة الشرف والنزاهة . وتدور لعبة توازن الصراع ....
ويستمر الفساد ويستمر نهب الوطن ويثور كل من يوجّه إليه أى أتهام . باعتبار أن مصر هذه ليست مصرنا ومن حقنا محاسبة من ينهبها . بل هى مصر بتاعتهم .... عزبة أبوهم ... يفعلون بها ما يشاءون ويبيعون ثرواتها كما يريدون ويستولون أيضاً على مالها وقتما يحبون .....
كل هذا لأن من فوق المساءلة صاروا أكثر مما ينبغى ... جهات سيادية ورجال أمن وقضاء وسلطة وحزب . وحتى نساء فراش وإناس سيئوا السمعة... ليس المهم من هم ... المهم أن ينطوى أحدهم تحت راية أحد المماليك ...

* * *

فى هذا العصر تضاعفت اعداد المنافقين والمرائين أكثر من ألف مرة بعد أن أصبح النفاق هو الأسلوب الأمثل للصعود إلى القمة والانضمام إلى الفئات المحصّنة ودخول قائمة من فوق المساءلة والانطلاق كالفرس الرهوان فى عالم الفساد ...
يكفى أن تكون من مليونيرات هذا الزمن وأن تنضم إلى الحزب الوطنى . لينفتح لك باب الفساد على مصراعيه ولتجد كل قيادات البلد قد تحوّلت إلى هيئة دفاع قوية عنك وعباقرة القانون منهم إلى جوارك يساندونك .أو حتى يصدرون قوانين خاصة لك حتى تخرج من محنتك ...
ولعبة القانون هذه هى لعبة شياطين نظام هذا العصر. فمادام النظام بجميهم ورجال مجلس الشعب لا يربحون إلا بتزويرهم . ومادامو حزب الأغلبية بالعافية كما يدّعون فلماذا يحارون...يمكنهم أن يستعينوا بشياطينهم ويبتكروا قوانين جديدة يوافق عليها المجلس العظيم بالنظام الديموقراطى المعروف بموافقون موافقه . ثم تصدر القوانين التى تذبح الديموقراطية وباسم الديموقراطية ...
لعبة يطلقون عليها اسم ديكتاتورية الأغلبية ... وياليتها حتى أغلبية حقيقية ....إننا نتحداهم كشعب أن يجروا انتخابات قادمة تحت إشراف دولى .وهم طبعاً سيرفضون لأنهم سيخسرون خسارة فادحة وسيحاكمون بعدها على ما اقترفوه فى حق هذا الوطن لو تمت الانتخابات دون قمع وقهر وتزوير وتزييف . ولكنهم سيغلفون رفضهم هذا بإطار زائف من الحماس والوطنية المرسومة وسيربطون هذا

بسيادة مصر وقرارها . ولن يخيل هذا على مواطن واحد لأننا نعرفهم جيداً ...

*   *   *

لأن النظام يدرك أنه نظام ديكتاتورى بحت وأنه لا وجود قط للديموقراطية الحقيقية وانه يعتمد اعتماداً تاماً وكاملاً على الأمن وحده . فهو حتماً سيقاوم أية انتخابات تحوى ضمانات حقيقية لعدم التزوير أو التزييف أو تدخُّل رجال الشرطة لمنع أى مواطن من الإدلاء بصوته . اللهم إلا إذا كان من حاملى كارنيه الحزب الوطنى ....

النظام سيقاوم أية انتخابات نظيفة سواء أكانت انتخابات مجالس محلية أو مجلس الشعب والشورى أو انتخابات رياسة الجمهورية بالطبع . والتى يستحيل أن يسمحوا فيها بأية رقابة خارجية ؛ حتى لا يطير الدخان ....

وفى كثير من الأحيان نتساءل : هل يعلم مبارك حقاً بما يدور من حوله فى زمن حكمه أم أن تلك الأسوار الفولاذية العالية التى أحاطوه بها قد حجبته عن شعبه . فلم يعد يدرى بما يحدث خارج الأسوار ولم يعد يدرك إلا ما يريدونه أو يدركه .....

قديماً قالوا : لو كنت تدرى فتلك مصيبة . وإن كنت لا تدرى فالمصيبة أعظم ..... والسؤال : هل يدرى أو لا يدرى ؟!....

كل رئيس فى كل دولة لديه وسائل قوية : لمعرفة ما يدور فى الشارع لو أنه أراد هذا .... لديه أجهزة المخابرات التابعة له

وحده والتى يمكنها الاتصال به مباشرة والحصول على تكاليف شخصية منه . يمكن ألا يدرك بها أى مخلوق آخر ....

ولكن هذا يعيدنا إلى عبارة مهمة فى الفقرة السابقة ..(لو أراد)....

السؤال التالى إذن هو : هل يريد ؟!..

لقد كان النظام كله يسير على نحو جيد إلى حد ما حتى قضى الرئيس السورى نحبه ووضع ابنه مكانه .... وتغيَّرت الصورة .

*   *   *

المشير عبد الحكيم عامر من رجال حركو يوليو الأوائل . كان صعيدياً شهماً . ولأنه صعيدى شهم فقد كان يرى ضرورة حماية رجاله والزود عنهم ضد أى أتهام حتى لو كانوا من أفسد الفاسدين . وكان السؤال المطروح فى ذلك الحين هو : هل من حق من يقود أمة أن يتعامل كصعيدى شهم أم كقائد ؟!... هل يدافع عن رجاله أم يزود عن وطنه ؟!.... المشير عبد الحكيم عامر اختار الحالة الاولى فدافع عن رجاله وهم يفسدون وطنه . فكانت نهايته ونهاية الوطن على يده سوداء . والآن عندما يؤرخون لنكسة يونيو فهم يعتبرونه خائناً وليس شهماً . لأنه أضاع خيرة شباب مصر فقط ليحمى الفاسدين من رجاله .....

وفي هذا العصر يحمي النظام رجاله من القمة إلى القاع . متصورًا أن هذا سيمنحه القوة لأن هؤلاء الفاسدين سيدينون له بالولاء وسيكونون عونه وسنده إذا ما جد الجد . أو انهم سيمنعون انقلاب الامور عليه على أقل تقدير . ولكن مشكلة الفاسدين فى كل العصور أنهم مثل فئران السفينة ... أوَّل من يفر منها إذا ما تعرَّضت للغرق ... والفئران أبداً لم تنقذ قبطاناً يغرق ....

ولقد تغيَّرت سياسة النظام تماماً . وربما كل الانظمة المحيطة منذ سن حافظ الأسد تلك السنة السيئة ووضع ابنه ووريثه على مقعد السلطة قبل أن يذهب إلى ربه ليحاسبه على ما اقترفت يداه ....

فمنذ ذلك الحين انزرعت الفكرة فى رءوس الجميع .... كل واحد منهم صار يحلم بان يكون ملكاً وليس رئيساً .... ملك يجلس على مقعد السلطة ثم يموت ليرثه الأمير ومن بعده نسله . حتى تقوم ثورة تطيح برأس أخرهم وتنتهى مرحلة سوداء .... والنظام مهما فعل لن يمكنه أن ينكر أو حتى يستنكر أنه دخل لعبة التوريث ...

* * *

فجأة . وجدنا كل أجهزة الدولة تعمل فى نشاط من أجل هدف واحد يحاول الكل انكاره وإثبات أنه ليس حقيقياً . وتؤكِّد كل لمحة من الإعلام أو السياسة أو لجنة السياسات أنه حقيقة لا شك فيها ....

حقيقة التمهيد لتوريث الحكم إلى الوريث غير الشرعى لمصر ...الوريث الذى لم يتعامل مع شعب مصر إلا من خلال المليونيرات ورجال السياسة والمنافقين والطامعين .... هذا الوريث تعمل كل أجهزة الدولة فى اكبر منظومة خيانة عرفها التاريخ ؛ لكى تضعه فى مقعد السلطة خلفاً لأبيه ....

ومهما انكروا واستنكروا وكَّذبوا واكَّدوا . فإن كل مواطن بسيط فى مصر يدرك جيداً أن الجميع يسعى لتوريث السلطة . على نحو يجعل مصر ملكية ترفع علم الجمهورية ..... ملكية نتوارث فيها السلطة من معاوية بن أبى سفيان إلى يزيد . وربما إلى عبد الحكم أيضاً ....

وما أشبه اليوم بالامس .... وما أكثر أختلاف اليوم عن الأمس أيضاً.... فالنظام ؛ لأنه ستيناتى ديناصورى مازال يؤمن بما لم يعد يناسب العصر . وإنما يناسب شيخوخته . فهو يتصوَّر أنه بلطجى المنطقة وأنه سيفرض ما يريد على كل من يريد وسيسيطر على وطن كامل . فقط لأنه يمتلك أمن الدولة والمحاكم العسكرية وشياطين القوانين سيئة السمعة ... ولكن كان غيره أشطر .....

الفساد نفسه الذى يغذيه النظام ويقويه سيكون هو السبب فى انهياره وضياع خطته . وربما الإطاحة برأسه أيضاً ... هكذا علمنا التاريخ الذى لا يقرأونه ؛ لأنه لا حاجة لهم بقراءته ماداموا فى عزبة مصر .... بتاعتهم ....

* * *

الفساد فى هذا العصر الديناصورى الستينانى المملوكى لم يتخذ صورة الاستيلاء على المال وحده . وإنما تشكَّل فى كل الصور التى نعرفها . والتى يمكننا حتى تخيُّلها . ومن أبسطها الفساد الإدارى الذى اتبع السياسة نفسها ... سياسة المماليك ... سياسة أن كل مسئول يضعونه على مقعد السلطة . أية سلطة يعتبر أنه مادام عضواً فى الحزب الوطنى فالمكان الذى يرأسه هو عزبة أبوه واللى جابوه يفعل فيه وبه ما يشاء . بغض النظر عن الدستور والقوانين والشعب والوطن : فماذا يمثل له الشعب والوطن .... النظام سيحميه والنظام عيَّنه فى مكانه . وهو وحده يملك محاسبته أو عزله . ولا شأن للشعب أو الوطن بهذا فلماذا يبالى بهما أو يقلق بشأنهما ....

المهم أن يرضى النظام .... نظام مصر . وهى ليست مصرنا التى كنا نتغنى بها قديماً؛ لأننا كنا نراها مصرنا . ولكننا نعلم الآن أنها مصرهم ... نهبوها واحتلوها وسرقوا خيراتها وسيطروا على إرادتها وباعوا أرضها ومصانعها وشركاتها وغازها لكل من هبَّ ودبَّ . ثم لم يكتفوا بذلك وإنما استولوا على ما باعوه أيضاً أو شاركوا فى الاستيلاء عليه ...

وزير مالية النظام سألوه عن عدة مليارات . فثار وهاج وغضب واعتبر الأمر إهانة شخصية . على الرغم من انه أمين صندوق مصر وإذا ما اتهمناه بفقد مائة جنيه فالمفترض أن يصاب بالقلق ويحاول اثبات براءته وتبرئة ذمته . ولكن ولأنه وزير فى عهد مبارك فقد اعتبر أنه من التجاوز

سؤاله عن مال مصر من شعب مصر . لأن مصر ليست ملك شعبها إنها مصر بتاعتهم ... مصر السادة وليست مصر العبيد

فكيف يسأله العبيد ....

*　　*　　*

من أهم سمات فساد عصر العزب والمماليك . أنه عصر بلطجة سواء بلطجة مباشرة أو غير مباشرة . وهو عصر عار قانون الطوارئ وغياب قانون الحقوق وسريان مبدأ القرارات الإدارية التى تحكم كل شئ وتخالف كل القوانين وتعتبر المواطن المصرى مواطن من الدرجة الثالثة غير السياحية ....

كل مسئول فى موقعه يعتبر نفسه ناظر عزبة بلا صاحب . ويدرك أنه هناك نظام فاسد خلفه يحميه . وهناك حجة الإرهاب التى لعب عليها بوش واتبعته كل النظم المحبة والعاشقة للديكتاتورية وحكم الفرد . لذا فهو يصدر قرارات تحد من حرية المواطن وتقهر مصريته على أرض وطنه كما لو كان مواطناً من دولة أخرى ولا يملك حتى تأشيرة إقامة ....

حتى تاريخنا . أصدروا قرارات إدارية وسيادية (بمعنى احتلالية) بحرماننا منه . ففى عهد مبارك أصبح المصريون ممنوعين من دخول معظم الأماكن الأثرية ويعاملون كمجرمين عند محاولة دخولهم لها . وحتى المتحف

المصرى صار من المهين أن تدخله وأنت مصرى . إذ سيستوقفك رجل أمن صغير الشأن ضئيل الثقافة منعدم الفكر . ليسألك أمام عائلتك وبشكل مستفز للغاية عن سبب زيارتك لمتحف آثار وطنك باعتبار أن الزيارة الثقافية أمر غير مقبول فى نظر حكام الثانوية العامة بمجموع معهد إعدام الفنيين السياسيين بالعافية ...

فى ظل نظام مبارك . أصبح الأمن هو الحاكم الفعلى للبلاد وهو صاحب الكلمة العليا والأخيرة فى كل شئ . بدءاً من الفن ورقابته وحتى الترشيح لمجلس الشعب الذى يفترض فى النظم الديموقراطية الحقيقية أنه رقيب على الأمن نفسه ....

فى عصر مبارك . صارت لنا شبه حرية أن نتكّلم ونكتب ونصرخ وننتحب . وما من مجيب ..... أرجوكم ...... أبكوا معنا

* * *

عندما يبدأ الحديث عن مصر مبارك . أو عن مصر عصر مبارك . يصعب أن تجد نقطة يمكن التوقّف عندها . فكل ما حولك يغريك بالكتابة عن فساد هذا العصر وتجاوزاته وكل لحظة تعيشها فيه تدرك كم هو عصر فاسد. زائف. قمعى. فاشى. فارغ الفكر والموقف. منعدم الكرامة الوطنية. غير أمين على وطن بأكمله . فقط ليحمى فساد شرذمة لن يمضى الكثير قبل ان تدفع لهذا الشعب ثمن جرمها وفسادها وخيانتها ..

ولكن . ولأن الحديث غير مجد فى هذا العصر الذى يتكلمون وحدهم فيه ولا يسمعون أحد . فلابد من نقطة يحسن التوقّف عندها ....

نقطة نهاية سلسلة من المقالات وبداية نهاية نظام ....

وكل ما يمكننى أن أنهى به الحديث هنا . هو تلك العبارة التى أصبحت مثالاً للفساد من كثرة ما نهب بسببها من اموال المعونات الأجنبية المستباحة ...

عبارة (انظر حولك) ..

انظر وسترى فساد هذا العصر فى كل مكان حولك .... فى فساد الشوارع والحكومة ورجال الأمن والسياسيين وحتى كبار رجال النظام ....

انظر حولك وسترى كم ينهبونك ويستولون على خيرات عزبة أبوهم الصامدة التى تحمل على الخرائط اسم مصر ....

انظر حولك وشاهد كيف انتشر الفساد والرشوة والمحسوبية وكيف عادت سيطرة رأس المال والإقطاع وكيف بعد ما يزيد عن نصف قرن من حركة يوليو . أصبحنا بحاجة إلى حركة أخرى تعيد إلينا مصر .....

انظر إلى كل مسئول تعرفه وكل رجل أمن تقابله وكل عضو حزب وطنى تعرفه وكل متجاوز وكل فاسد وكل لص وكل مجرم وكل منافق وكل ماسح جوخ . لترى أنهم قد أصبحوا فى ظل نظام فاسد هم قمة المجتمع ..... انظر

حولك ألف مرة ثم سل نفسك فى صراحة .... أهى مصرك أم ..... مصر بتاعتهم ؟!..

عزبة أبوهم

منذ خرج الضباط (الأحرار) بحركتهم المباغتة التى استهدفت تصحيح أوضاع الجيش كما أكَّد بيانهم الأول . ثم انتهت بالإحتلال العسكرى لنظام الحكم كله . تحوَّلت مصر كلها من دولة إلى عزبة ......

عزبة كبيرة لها مجلس قيادة لم يدرك أو يتصوَّر أنه ممثل للمالك الحقيقى للعزبة وهو الشعب . وانما افترض واقتنع بأنها عزبة أبوه يفعل فيها كل ما يشاء. بأية كيفية يشاء . وقتما يشاء .وحسبما يشاء .وأينما يشاء ....

ومنذ تلك الفترة انغرس فى ذهن كل من يتربَّع . ليس على عرش السلطة فحسب. ولكن على أى مقعد من مقاعدها أنه فى عزبة أبوه التى لا قانون فيها ولا قواعد ولا نظم .وأنه هو الكل فى الكل يأمر فيطاع وينهى فيرتعد الكل ويقف فينحنى الآخرون وينام فيقفون لحراسته وحراسة إللى خلفوه .....

ولأن النظم الدولية لا تبالى بهذه الديكتاتورية العزبية كان من الضرورى أن ترتدى العزبة شكلاً ديموقراطياً ؛ حتى تكتسب شرعية دولية تجعل النظام الذى يحكمها شرعياً يمكنه التعامل مع الآخرين. ولكن الشكل الديموقراطى يستلزم انتخابات ونتائج ورأى الشعب الذى هو فى نظر النظام مجرَّد سكان عزبة أبوهم فحسب ...

ومن هنا . أنشأت حركة الضباط تقليداً جديداً مازال يتبع حتى لحظة كتابة هذه السطور .... تقليد إسمه تزوير الانتخابات ....

فى البداية .لم يقنع العسكريون السابقون ونظار العزب فيما بعد بفكرة الانتخاب ؛ لأنها تخالف الفكر العسكرى الذى تربوا عليه والذى لا يحق فيه للجندى سوى طاعة أوامر من برأسه دون تحديد من هو وما هى أيديولوجيته. فابتكروا نظام الاستفتاء على كل شئ ... والشعب طبعاً له الحق المطلق فى أن يقول نعم أو نعمين . ولكن محظور تماماً أن نقول تلات نعمات يا واحشنى .... ولأن الضباط (أحرار) بدأوا لعبة الاستفتاءات .....

* * *

مع بدء اللجوء إلى اسلوب تزوير الاستفتاءات ونتائجها ووضع قاعدة ضرورة أن ترضى النتائج نظار العزبة .بدأ عهد جديد فى مصر . خاصة وأن الأحزاب قد ألغيت . فلم تعد هناك معارضة . والحركة تحكم كل شئ ... من الشرطة إلى الجيش إلى القانون إلى الاعلام . فلم يعد هناك من يستطيع رفع رأسه أو النطق بكلمة واحدة أو حتى إعلان حدوث تزوير حتى ولو رآه بأم رأسه ....

وهكذا تحوّل النظام السياسى إلى نظام أحادى لا أحد يجرؤ فيه على أن يقول كلمة واحدة وإلا راح وراء الشمس التى

ظلت تشرق على مصر للعجب . على الرغم من كثرة المحتجزين خلفها ....

ورويداً رويداً . أصبح كل شئ فى مصر زائفاً . يهتم الكل فيه فقط بالشكل الظاهرى وليس بالنتائج الفعلية. حتى أن التقرير السنوى لأرباح البنوك كان يتم تزويره مع تقارير الشركات الخاسرة حتى يصدر موحياً بالنجاح. ونظار العزبة يدفعون الفارق من جيب أصحابها. فقط حتى يبدون ناجحين وكل من حولهم يفشل .... ويفشل ... ويفشل ..... وينهار .....

عمال المصانع الخاسرة كانوا يحصلون على أرباح سنوية. وموظفوا البنوك الخاسرة يحصلون على حوافز. وكل الفشلة جماهيرياً ينجحون فى مجلس الامة . والمشاريع المنهارة تعلن نجاحها العظيم ....

حتى جاء يونيو ١٩٦٧ م .... كان الناس أيامها يسمعون خطب ناصر الحماسية التى تذكرنى كثيراً بخطب هتلر. ويسمعون أنه سيلقى إسرائيل فى البحر فيشتعلون حماساً .ثم يسمعونه يطلب من أمريكا أن تشرب من البحر . فإن لم يعجبها البحر الأبيض فلتشرب من الاحمر فتلتهب أكفهم بالتصفيق ويهتفون للزعيم الذى سيأتيهم بالنصر العظيم .... وكانت الكارثة ..

* * *

فى عام ١٩٥٦ م . خرجت الطائرات الإسرائيلية ودكّت ممرات الطائرات المصرية التى كانت تقف فى العراء بدون دشم .ونسفت الطائرات نفسها وجاء جيشها واحتل سيناء ونقلنا نحن القتال إلى الجبهة الداخلية . ثم جاءت انجلترا وفرنسا وتحوَّل الموضوع كله إلى كارثة ... كل هذا ونظار العزبة يصدرون بيانات عسكرية حماسية وكأننا ننتصر على طول الخط .وكأن قيادتهم حكيمة . رشيدة .عبقرية ....

وهذا ليس لأنهم يجيدون البيانات الزائفة .ولكن لأنهم ومنذ قيام حركتهم التى استولوا بها على عزبة مصر اعتادوا التزييف والتزوير والتدليس والبيانات الكاذبة والزائفة والضحك على دقون الشعب والركوب على أنفاسه . وكأنهم عمله الرضى الذى كتبه الدهر عليه .....

وكانت الهزيمة شبه كاملة وكادت تصل إلى هزيمة لا مهرب منها .لولا ذلك الانذار الأمريكى السوفيتى الذى حاول به الطرفان حماية مصالحهما فى المنطقة وأرادا به إعلام انجلترا وفرنسا بأنهما لم يعودا قوتين عظميين وأن ميزان القوى قد تغير تماماً بعد الحرب العالمية الثانية وابتكار الطرفين للقنابل الذرية والصواريخ .....

وعلى الرغم من أننا لم نشم حتى رائحة الانتصارات .وأن الأمر مجرَّد نجاة من كارثة بمعجزة أو بمصالح شخصية و دولية. فقد أعلنا النصر كنوع معتاد من تزييف الحقائق .وأقنع نظار العزبة أصحابها بأن كل شئ تمام التمام بل وأنعموا على عبد الحكيم عامر برتبة مشير وانقلب الحال فى مصر رأساً على عقب وهلّل الشعب المخدوع فى الشوارع.

لأنه لم تكن هناك قنوات فضائية مفتوحة ولا شبكة انترنت ولا إذاعات بخمسة وعشرة موجات. وكانت هناك رقابة على الصحف. والناس عمياء خرساء طرشاء مخدوعة ..... ولأنهم بعدها صدقوا كذبهم وأدمنوا التزييف والتزوير كانت كارثة يونيو ١٩٦٧م ....

* * *

بعد ما حدث فى ١٩٥٦م . صدق نظار عزبة مصر أنفسهم وتصوَّروا أن التزوير والتزييف هما الأسلوب الأمثل لحكم البلاد والعباد. لذا فقد اعتنقوا هذا المبدأ .واعتبروه ركيزة أساسية من ركائز الحكم وأنه بدون تزييف وتزوير وخداع. لن تكون لقوات احتلالهم سيطرة أو هيمنة . والحجة دوماً جاهزة ....أنهم يعرفون صالح هذا الشعب الجاهل العبيط أبو ريالة أحسن من الشعب نفسه ألف مرة ومصلحة الشعب تتمثل طبعاً فى أن يحكموه هم دون سواهم وأن يبقوا فى الحكم على الرغم من أى شئ وكل شئ حتى آخر نفس .إما بالموت الطبيعى أو بالاغتيال أو بالشنق

ولأنهم شعروا فى أعماقهم بالهزيمة التى حاولوا إخفاءها عن الشعب وتجميلها بعيد نصر . مازلنا نحتفل به حتى يومنا هذا. فقد تولّد لديهم غضب العاجز. تماماً كالرجل المصاب بعجز جنسى والذى يواكب على ضرب زوجته وإهانتها فى عنف وكأنه ينتقم من عجزه بقوة زائفة معها .وبدأوا عصر اعتقالات وتعذيبات واهانات وقطع ألسنة

واغتيال معارضين . وعاشت العزبة أسوأ سنين تاريخها الحديث وكانت النتيجة الطبيعية لهذا . هى هزيمة ١٩٦٧م ....

وتلك الهزيمة لو قرأت ما كتبه مذكرات العسكريين وغيرهم عنها لم تكن مجرَّد نكسة كما حاولوا تدليعها وإنما كانت فى واقعها كارثة .... أكبر كارثة حصدتها مصر وحصدها معها العالم العربى ربما فى تاريخه كله ....

لقد انهزم نظار العزبة تقريباً فى الساعات الأولى من الحرب الفعلية بعد أن رتبوا بأيديهم لهزيمتهم ست سنوات كاملة . باستهتارهم وجبروتهم وزيفهم وتزويرهم وخداعهم ونهبهم لخيرات هذا البلد الذى جعله اللهّ سبحانه وتعالى أمناً. فعاثوا فيه الفساد وحوَّلوه إلى عزبة أذلوا أصحابها وقهروهم وهزموهم ...

* * *

ناصر كان يشعل الناس حماسة ويؤكد لهم أنه سيلقى إسرائيل فى البحر ويسخر من أمريكا ومن حكام الدول العربية. والناس تهلّل فرحة سعيدة بزعيمها الغضنفر وجيشها القوى ..

ثم فجأة . نزلت الصاعقة على الرءوس ... استيقظ الناس يوم الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ . على صفارات الإنذار القوية وعلى بيان عسكرى حماسى يؤكِّد أن إسرائيل تهوَّرت وجرؤت على مهاجمة مصر .ولكن وسائل دفاعنا

الجوى تصدَّت لها ببسالة وأسقطت لها عدة طائرات ....
وهللَّ الشعب المخدوع ورقص فى الشوارع وتبادل التهنئة على هذه المقدمة لنصر عظيم وجلس الناس إلى جوار أجهزة الراديو وأمام شاشات التليفزيون يتابعون الموقف مستبشرين. خاصة وأن لعبة التزييف والتزوير كانت فى أقصاها والبيانات العسكرية الكاذبة والمضللة تغرق الآذان دون ذرة من الحياء أو الخوف .. ولم لا ... لقد فعلوها عام ١٩٥٦م . ومازالوا يحتفلون بعيد نصر زائف والشعب مازال ينام فى العسل. وكل من يجرؤ على الكلام ينام على البرش أو على مياه مثلجة فى عز الشتاء ...

ولكن الضحك على الدقون يستحيل أن يدوم كما علمنا التاريخ . والفساد يولِّد الاستهتار ويرعى الخيانة ويمهِّد للهزيمة ثم أن العالم لن يستمع إلى نظار العزبة. حتى ولو وقفوا على ألسنتهم التى تستحق قطعها. لذا فقد انهزمنا واندحرنا وركبنا العار من فوق ومن تحت وضاع خيرة شبابنا وضاعت سيناء وضاع الامل وضاع الإيمان بنظار العزبة الذين أعلنوا عن إسقاط ما يفوق المائة طائرة. فى الوقت الذى لم تكن لنا فيه طائرة واحدة فى سماء المعركة. ونشروا بمانشيت كبير فى الصحف عن أكبر معركة بالدبابات على أرض سيناء. صباح نفس اليوم الذى أعلن فيه عبد الناصر خطاب التنحى ....

* * *

حركة الضباط احتلت مصر وحوَّلتها من دولة إلى عزبة أبوهم واللى جابوهم .وحوَّلت هذه العزبة من عزبة منتجة لها صيت عالمى وصناعات تنافس أعظم صناعات أوروبا وأمريكا إلى عزبة مدينة مفلسة . بمغامراتهم العشوائية ودس انوفهم فى كل مالا شأن لهم به والتورَّط فى حروب لم يستفد منها سوى من ذهبوا إليها . وفتحوا بوتيكات على حسها وقهروا شعبها وهزموا إرادتها . قبل أن يذيقوها أمر هزيمة فى عمرها كله .....

حياة الزيف والبهتان التى عاشوها، جعلتنا نخسر شبابنا وأرضنا وسلاحنا وحريتنا وكرامتنا وشرفنا أيضاً. وعلى الرغم من كل هذا خرج ناصر يعلن خطاب التنحى، فخرج الناس إلى الشوارع يبكون ويلطمون ويطالبونه بالعودة وانقاذ البلاد والعباد ونسوا نكستهم وهزيمتهم وعارهم، وفكروا - كالمعتاد- فى شخص واحد صار يساوى بالنسبة غليهم كل شئ .... ناصر ....

وحتى فى هذا . لعب نظار العزبة دورهم، فساعدوا فى حشد الجماهير واشعال جذوتها وتعميتها عن هزيمتها وعن أرضها التى ذهبت وشبابها الذى راح وأقنعتها بأن ناصر هو الاهم ... هو الأمل .... هو المستقبل .... هو بابا وماما وأنور وجدى وكل حاجة ... وعندما عاد ناصر وتراجع عن التنحى ووافق على مد الاحتلال . كان هناك صراع آخر يدور بين نظار العزبة بعضهم وبعض ... فالعزبة فى ذلك الزمن كان لها ناظران كبيران ينضم تحت لواء كل منهما مجموعة نظار آخرون أقل شأناً، ولأن الهزيمة يتيمة، والنصر له ألف أب،

فقد كان الناظران يشتركان فى لحات النصر الزائفة طالما الناس مخدوعة، ولكن كيف يصدقهما الناس الآن وقد راحت أرضهم وفنى شبابهم وضاعت كرامتهم ...

* * *

حلت نكبة ١٩٦٧م . فاختلف ناظرا العزبة الرئيسيين ... كانت صورتهما فى البداية توضعان فى برواز واحد، ثم اختلفا فجمع كل منهما شلته وبدأ الصراع ... ناصر احتمى بشعبه، وعامر احتمى بجيش هدَّته الهزيمة وأحنت رأسه الكارثة ... والشعب وقف يتفرج على الرغم من استمرار لعبة الخداع والتورية والتزييف والضحك على الدقون، وعلى الرغم من أن الموضوع دخل فى تحصينات وأسلحة وعناد ومحاولة فرض شروط أسوة بما حدث فى ١٩٥٦م . وما صنع نتيجة مختلفة تماماً .... ثم تم نحر أحد الناظرين بوساطة رجال الناظر الآخر، وأصبحت العزبة كلها فى يد ناظر واحد ....

ولقد حاول الناظر المنفرد، والحق يقال، إعادة بناء الجيش ورتق ثقوب الهزيمة وإعادة الروح إلى شعب فقد ثقته فى كل شئ وأى شئ وبذل فى سبيل ذلك جهداً مضنياً أرهق قلبه المريض ففاضت روحه وتنحَّت عن الدنيا، ولم يشفع لها مظاهرات الناس ولا حشد الجماهير ولا جميع أبواق الاتحاد الاشتراكى ....

مات ناظر العزبة تاركا العزبة مهزومة مدحورة تحتاج إلى إعادة بناء وأساس جديد قوى .... مات وترك العزبة لشلة من النظار المنتفعين المسيطرين على كل شئ وسلّم العلم لمن تصوَّروا وتصوَّر معهم الشعب أنه الأقل شأناً ...

ولكن الزمن كان يخفى للعزبة الكثير ... فالشلة التى تركها ناصر وراءه تصوَّرت أن البلد صارت بالفعل عزبة أبوهم ولم يعد لها ضابط ولا رابط وأنهم سيأكلون من ثمراتها كما شاءوا وكلما شاءوا وكيفما شاءوا. ماداموا يحكمون ويملكون كل شئ .... الشرطة والجيش والمخابرات والإعلام وحتى مكتب الرئيس نفسه ...

ولكن من تصوَّروا أنه الاقل شأناً. كان فى الواقع الأكثر خبثاً .... وكان ماكان....

* * *

عندما جاء السادات إلى الحكم كان شعور العزبة يلازمه بحكم السنين التى قضاها فى السلطة وبحكم انتمائه إلى حركة نظار العزبة الأشرار ... عفواً .... الأحرار (كما ادعوا) . ولكنه كان أشبه بناظر عزبة يحب عزبته ويرغب فى أن يتباهى بها على دول العالم لا أن يتحدَّى بها دول العالم لذا فقد بدأ عصره بمصالحة الدول المجاورة وكسب ودَّها. وحاول جاهداً تجاوز ذلك الحاجز الصلب الذى صنعه وجوده بعد عصر جمال الذى لم يخلب لب شعبه فحسب. ولكنه خلب لب المنطقة كلها. ثم أنه كان الوحيد

من بين مجموعته الذى عاش وسط كل طبقات الشعب وعانى معاناتها. بحكم نشأته فى بيئة متواضعة وفراره السابق من السلطة واختلاطه بطبقات الحرفيين والصناع ودخوله القصر الملكى واشتراكه فى الحركة. سواء اتهموه بمحاولة التنصُّل منها أم لا ... ثم أنه كان صاحب ميول استعراضية خاصة. ربما بحكم ميله القديم لفن التمثيل ورغبته السابقة فى العمل فى الوسط الفنى. وكان أيضاً صاحب قلم رشيق ويمتلك القدرة التى تناسب عصره ومجموعته على تغليف كل الحقائق. حتى المر منها بطبقة من السكر ....

ولم يرق هذا بالطبع لنظار العزبة الآخرين الذين يحكمون العزبة فعلياً والذين تصوَّروا منذ البداية أنه سيكون مجرَّد طرطور بستين جنيه. على رأى فؤاد المهندس. فأرادوا أن يذبحوا له القطة منذ أوَّل ليلة واستغلوا فى هذا جاذبية وشعبية ناصر ولعبوا على هذا الحبل الذى تصوَّروا أنهم سيلفونه حول رقبة الناظر الجديد ويسحبونه منه خلفهم ليحكموا هم العزبة فعلياً ....

ولكن الناظر الجديد كان فلاحاً شديد الخبث والدهاء. له تاريخ طويل فى التآمرات والعاب الحواة ويفهم أصول الكر والفر . حتماً أكثر منهم بألف مرة .... فكانت الضربة ...

* * *

السادات من دون باقى ضباط حركة يوليو جمع الكثير جداً من الخبرات، وخاصة بعد تورطه فى قضية جاسوسية إبان الحرب العالمية الثانية وإفلاته من الاتهام بدهاء الثعالب واتهامه فى قضية اغتيال أمين عثمان وتلاعبه بالمحققين طوال الوقت، لذا فقد استوعب المؤامرة ولأنهم عاشوا معظم عمرهم حكام طغاة يحكمون شعباً محتلاً محاصراً لا يملك شيئاً، لم تكن طبيعة التآمر فى نفوسهم ؛ إذ لم تكن لهم حاجة بها أبداً فى عزبة يأمرون فيها . فيتسابق الكل لطاعتهم، لذا فقد وضعوا خطتهم استناداً إلى أن الشعب سيهب لاستعادتهم عندما يقدمون استقالتهم، كما هبَّ لإعادة جمال إلى مقعد الرياسة عقب خطاب التنحى، ونسوا أن الشعب كان يعشق جمال ولكنه يكرههم أشد الكراهية ....

لقد حاكوا مؤامرتهم كتلاميذ فى مواجهة أستاذ ورئيس قسم التآمر واللف والدوران، وكان من الطبيعى أن يربح هو المعركة ويسحقهم سحقاً قبل أن يحركوا أصابعهم.

ومرة أخرى أصبحت مصر فى قبضة ناظر عزبة واحد ولكنها ظلت كما أصبحت منذ قيام حركة يوليو ١٩٥٢م ... مجرَّد عزبة ....

ولأنه يعشق الفن والاستعراض، بدأ ناظر العزبة الجديد يكسب شعبه بحركات استعراضية شيك، ولكنها كانت فى الوقت ذاته فى صالح هذا الشعب المقهور، فقد ألغى الرقابة على الصحف وأطلق الحريات وهدم المعتقلات وفتح المجال لكل معارض وصاحب رأى ... ولم يكن هذا لوجه اللّه

فى الواقع، فقد ألغى الرقابة على الصحف وفتح باب الرأى أوَّل ما فتحه فى انتقاد وهدم اسطورة ناصر وعصره .... وكانت لعبة مدروسة ... للغاية.

* * *

من أوائل ما فعله السادات بعد أن سيطر على العزبة كلها، هو أن أصدر عفواً عن مصطفى وعلى أمين، وبغض النظر عن عشاق ومريدى الأوَّل، فما أطلعت عليه من حيثيات قضيته لم يشر قط إلى براءته من التهمة التى نسبت إليه . ولكن ما علينا، فالقضية لم تكن فى الواقع هى قضية مصطفى وعلى أمين بقدر ما كانت قضية جمال عبد الناصر وعهده الذى رآه الكل صورة زاهية لمصر . فما أن خرج مصطفى أمين إلى النور حتى أنطلق يهاجم عصر ناصر ويكشف عيوبه ومساوئه وكان الكل ينتظر هذه الشرارة، لتخرج علينا عشرات الكتب والمذكرات ومئات بل آلاف المقالات لأولئك الذين لم يروا من عصر ناصر إلا كل سوء وراح الكل يهاجم ذلك العصر بشراسة، إما لرأى فعلى أو لاحقاد شخصية أو لأن هذا هو قربان التقرُّب إلى ناظر العزبة الجديد الذى يسعده أن تنهار أسطورة عصر ناصر فلا يبقى فى قلوب الناس سواه، باعتبار أنه هو الذى أعاد إليهم حريتهم وهدم المعتقلات التى تخيفهم وألغى التنصُّت على تليفوناتهم ومكاتبهم وحجرات نومهم .... حتى الأغنيات الوطنية التى تحمل اسم ناصر اختفت تماماً

من وسائل الإعلام. وكأن الناظر الجديد قد استدعى جيناته الفرعونية ليمحو عصر سلفه من الأذهان والقلوب ويحل محله كلية .... ولكن كان ينقصه شئ .... شئ كبير. يطغى به على عصر ناصر ويتربَّع به على عرش العزبة . فارداً قامته معلناً فخره ومجده .....

ولم يكن الأمر سهلاً أو هيناً. فالناس على الرغم من كل ما فعله لم يكن من السهل عليها نسيان عصر ناصر ولا الوقوع فى غرامه هو. فقامت المظاهرات واعترض الطلاب على وعوده غير المحققَّة بحسم قضية احتلال سيناء وخرج المصريون بآلاف النكات عنه ووصله كل هذا. ولكنه كان يعد للضربة ... ويستعد ......

ثم ضرب ضربته ...

* * *

كل شئ كان يبدو هادئاً على الجبهة المصرية صباح السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م .... الحركة عادية. الجنود دون خوذات. يبللّون أقدامهم فى مياه القناة. وبعضهم منشغل بالصيد. وسماع محطة الأغانى. وصوت حليم يصدع بالأغنية التى أعتاد أن يبدأ بها حفلاته. أحلف بسماها وبترابها. حتى كانت الساعة الثانية إلا قليلاً .... ففجأة. دب النشاط فى كل الجنود على الجبهة وارتدوا خوذاتهم وأخرجوا معداتهم وتسلحوا بزى الميدان وما هى إلا دقائق بعد الثانية. حتى انقضت سحابة من الطائرات المصرية على

سماء القناة وعبرتها بدوى يصم الآذان لتعلن بضربة جوية ساحقة ناجحة. بدء حرب أكتوبر ....

حرب عظيمة حفرت وسام شرف على صدر مصر وعلى شاهد قبر السادات فيما بعد وكللته بالنجاح الذى كان يحلم به وصنعت له المجد الذى لم يدخله قلوب المصريين فحسب. وإنما قلب الأمة العربية كلها. وخاصة فى ذلك اليوم الذى ظهر فيه على شاشة التليفزيون وهو ينعم بالأوسمة والنياشين والرتب. على من قادوا المعركة وحققوا ذلك النصر الذى انجرف بعض كتابنا. بدافع الغضب من نظام السادات أو محاولة تجريح النظام الحالى وجرَّحوا مصر. بتشكيكهم فيه والانسياق وراء الدعايات الصهيونية التى حاولت تصويره فى صورة هزيمة أو لعبة متفق عليها من قبل ....

وبغض النظر عن كل هذ. فقد ربح ناظر العزبة الجديد. ليس معركة عسكرية. بل معركة وجود وأصبح زعيم مصر وصار وحده على الساحة وصارت أمامه فرصة ذهبية : ليصنع من مصر دولة كبرى تنحنى لها كل الهامات. ليس فى المنطقة وحدها. ولكن فى العالم أجمع. خاصة وأن شعبيته قد أصبحت أيامها جارفة فى المنطقة كلها .ولكنها فى النهاية عزبة .... عزبة لها ناظر وليس لها صاحب ...

* * *

بعد نصر أكتوبر شعر السادات بنشوة عارمة وأدرك أنه قد وضع نفسه بالفعل فى المكانة التى كان ينشدها. وبدأ يفكر فى تطوير العزبة التى يحكمها. ولما كان أمريكى النزعة، مغرماً بالنازية الألمانية فى جانب البناء منها ولما كان هذان أمرين متناقضين تماماً. فقد اتخذ قراراً منفرداً بتحويل البلد من النظام الاشتراكى إلى الانفتاح. ونظراً لأنها عزبة . فلم يحاول حتى أخذ رأى الشعب أو ممثلى الشعب فى هذا. ولكن يحسب له أنه أجرى أوّل وآخر انتخابات حرة ديموقراطية فى تاريخ مصر ما بعد حركة يوليو ... المهم أن البلد قد انتقل بقفزة واحدة ودون تمهيد أو إعداد وبقرار منفرد من ناظر العزبة إلى بلد انفتاح، مما استتبع حالة من الفوضى لا مثيل لها من الناحيتين . الاقتصادية والاجتماعية. واختلط الحابل بالنابل وقفز كثيرون من القاع إلى الساحة وصار التهريب هو مهنة من لا مهنة له وانتشرت السلع المستوردة بعنف فى سوق لم يكن يسمع عنها إلا من قلة حظت بالسفر خارج البلاد. فساد الفساد . وبذر بذوره فى أرض العزبة. والناظر المنتصر منشغل بإعادة الأحزاب وعودة الأخوان المسلمين كوسيلة للقضاء على الشيوعية وكأنه يحضر نمراً متوحشاً ليقضى على كلب مسعور فى الحديقة. ومع ميوله الاستعراضية وعشقه للفن. اختفى عيد العلم الذى كان يكرّم النوابغ وظهر بدلاً منه عيد الفن. ولأنه ناظر عزبة بلا أصحاب راح يمنح الرتب لمن يحله فأصبح الموسيقار العظيم محمد عبد الوهاب : لواءاً بالجيش وحظى العديدون بالرضا السامى وكثرت الحفلات وليالى

الملاح وحضر كبار النجوم وأهل الطرب إلى مصر والتقى بهم شخصياً ونسى العزبة التى انقسمت فى عهده إلى خمسة فى المائة من علية القوم الذين يعانون من التخمة، وخمسة وتسعين فى المائة ممن يعانون من الأنيميا ....

* * *

مع انقسام المجتمع إلى فاحش الثراء ومدقعى الفقر، اتخذت العزبة صورة جديدة تماماً، ولكنها ظلت عزبة بلا دستور يحتم تداول السلطة ويؤكّد الحريات ويحد من سلطات رياسة الجمهورية، حتى عندما تم تعديل الستور ليعطى رئيس الجمهورية الحق فى الترشيح لمدة أخرى، تم تغييره مرة ثانية لتصبح الكلمة لمدد أخرى بدلاً من الحياة ..... وبينما الشعب منشغل فى فك اشتباك تلك الكارثة الاجتماعية الجديدة، وبميوله الاستعراضية المعتادة آنذاك باغت ناظر العزبة شعبه ومجلس شعبه باستعداده لدخول مفاوضات سلام مع إسرائيل .... وحتى فى هذا، تعامل باعتباره ناظر عزبة أبوه وليس رئيس دولة يفترض – صورياً – أنها ديموقراطية. فأقدم على هذه الخطوة بالغة الخطورة دون أن يستشير أحداً ولا حتى ممثلى شعب العزبة أنفسهم .... ولأن المجلس مجلسه، فقد صفّق له ولم يناقشه أو يسأله عما فعله .... وكيف يجرؤ مجلس الشعب أن يفعل مادام فرعون شخصياً هو ناظر العزبة ؟!...

وبغض النظر عن رأى الشعب أو حتى عن غضب الدول العربية التى باغتها الموقف فقد وضع هو مبادرته موضع

التنفيذ وذهب بالفعل لزيارة إسرائيل وكان خطابه هناك قوياً والحق يقال. فلم يهادن أو يتهاون أو يجامل وهو يصارحهم بحقيقة الموقف ويكسب انبهار واحترام وتقدير العالم كله. باستثناء الدول العربيةالتى لم تستطع استيعاب الموقف أو لم تستطع التخلى عن مصالحها المرتبطة ببقاء الموقف. فاتخذت موقفاً عدائياً عنيفاً وقاطعت مصر ومنتجاتها ونظامها ورفض الفلسطينيون الاشتراك فى المفاوضات التى قبلوا أقل من ربعها فيما بعد وخسر العرب الفرصة وعقدت عزبة مصر اتفاقية سلام منفردة ....ولهذا قصة ...

* * *

كتب عديدة صدرت حول اتفاقية كامب ديفيد التى عقدت من خلالها مصر اتفاقية سلام منفردة مع إسرائيل. بعضها أيدَّ. إما من باب الاقتناع أو منافقة الرئيس وفقاً للتقليد الذى ساد عزبة مصر منذ استولى عليها النظار الأحرار. والكثير منها رفض وهاجم وطالب باستمرار سياسة الحرب والضرب والتهديد والوعيد والشجب. ولكن فى كل الأحوال كان ناظر العزبة قد وقَّع الاتفاقية وانتهى الأمر وصحيح أنه بعد توقيعها عرضها من باب تحصيل الحاصل على مجلس الشعب. ولكن تم تنفيذها بالفعل وأعاد الإسرائيليون سيناء وطبقوا كل بنود الاتفاقية وبخاصة تلك التى لم يعلم الشعب عنها شيئاً. على الرغم من أن الناظر وكل معاونيه أكَّدوا أنه لا توجد بها بنود

سرية. ولأن الناظر كان مهوساً بالألقاب والمسميات منذ صلى الجمعة. فأطلق عليه حواريوه لقب الرئيس المؤمن وأصدر قرار حرب أكتوبر. فأصبح بطل الحرب. ثم وقَّع اتفاقية السلام فأصبح بطل الحرب والسلام. ونظراً لانفراده بالقرار كان ينبغى أن يطلقوا عليه اسم بطل الأخوة الأعداء وما أصابه فيما بعد كان يستحق لقب الجريمة والعقاب !!.....

المهم أن الناظر الجديد أصابته الخيلاء وأصبح محور اهتمام العالم كله بعد عقده مبادرة السلام مع إسرائيل التى ظلت عدوَّة العالم العربى كله. باستثناء مصر فانتفخت أوداجه وبدأ يتصرف باعتباره مالك العزبة وليس ناظرها فحسب. ثم ثار ثورة عارمة عندما زار الولايات المتحدة الامريكية التى كانوا يستقبلونه فيها هو وزوجته بالأحضان والقبلات. فخرجت مظاهرة ضده من أقباط المهجر مما جعله يعود إلى العزبة ثائراً وقد انفلتت أعصابه ولم تلتئم مرة أخرى حتى اخر لحظة فى حياته كلها ... فمع ارتفاع الموجة المناهضة لاتفاقية السلام عبر الحرية التى تباهى بها انهارت أعصابه وقرَّر فتح النار على الجميع ..... بلا استثناء .

* * *

على الرغم من تباهيه الدائم بالحرية وحديثه المستمر عن أنه قد منح الشعب فى العزبة ما حرم منه منذ قيام الحركة. فقد ناظر العزبة اعصابه فجأة ولم يطق تلك الحرية التى يتباهى بها. فأصدر فجأة وفى عصبية شديدة

قراراً باعتقال المعارضين لاتفاقية السلام من كل الفئات بلا استثناء، من حسنين هيكل إلى صحفيين صغار لم نسمع عنهم قبلها قط، وبضربة واحدة أنهى تاريخه السياسي كله وخرج على شعب العزبة بخطاب تاريخي فاقت تجاوزاته فيه كل تجاوزات من سبقوه حتى وصلت إلى حد السب العلني وقذف المعارضين بما ليس فيهم ....

ومع ذلك الخطاب (التاريخي) أيقن شعب عزبة مصر أن ناظرهم يشهد آخر أيام حكمه وأنه قد فتح النار على الجميع وسيكون هناك حتماً رد فعل ....وعنيف ...

وكالمعتاد، صدقت توقعات أهل عزبة المحروسة والتي لا تتفق ولم تتفق أبداً مع توقعات نظارها وشيوخ خفرها، وفي يوم الاحتفال بنصر أكتوبر ووسط جيشه وخفره وكل نظم أمنه رد الشعب النار إلى صدر ناظر العزبة مباشرة .....

وفي يوم الاحتفال بنصره الذي تباهى به دوماً لقي السادات مصرعه وتحوَّلت العزبة في ساعات إلى ساحة قتال عنيفة بين جماعات إسلامية حاولت استغلال الفرصة والانقضاض على السلطة دون تنسيق أو خطة مسبقة، وبين قيادات سياسية أرادت حسم الموقف بأقصى سرعة حتى لا تفلت الأمور من أيديها وتجد نفسها أمام أحبال المشانق كما حدث في إيران من قبل ....

ومن هنا، أصدرت القيادة السياسية قانون الطوارئ الذي لم يرفع بعدها أبداً على الرغم من أن الناظر الجديد قضى في الحكم ما يقرب من مجموع ما قضاه كل من سبقه من نظار مجتمعين وكأننا في زمن جديد لا يوجد فيه قانون

يحمي العزبة لأن ناظرها ورجاله قرَّروا أنهم ليسوا نظَّار عزبة فحسب، ولكنهم ملاَّك، وكما احتل النظار الأحرار العزبة فهم سيعملون على استنزافها .... وكله بالقانون، وهكذا بدأ عصر جديد في العزبة .... عصر سيادة القانون ...... بالعافية .

كانت أكبر مشكلة بالنسبة لناظر العزبة الجديد هي أنه بخلاف من سبقه، لم يكن له تاريخ سياسي كاف ليقف وسط عمالقة السياسة الذين يحيطون به والذين تربوا على الزيف والتزوير وخداع الشعب وقمعه منذ أكثر من أربعين عاماً في حين لم يمض على دخوله هو عالم السياسة سوى خمس سنوات أو أكثر قليلاً ....

وكان من حوله يدركون هذا بالفعل ويدركون أكثر حاجته الشديدة إليهم حتى يمكنه استيعاب اللعبة كاملة والوقوف وحده في الساحة ،لكنهم كانوا يدركون أيضاً أنه لو استوعب الأمر كاملاً فلن يكون لديه أي سبب للإبقاء عليهم أو الاستعانة بهم، لذا فقد بدأوا بدهاء السياسة التي خبروها في مناخ فاسد واختبروها في ظل نظام ديكتاتوري احتلالي قمعي في وضع خطة مدهشة ثعلبية شيطانية للسيطرة على كل الأمور قبل أن يملك الناظر الجديد أمر نفسه كاملاً، وفي الوقت ذاته كانت لديه هو مشكلة احتياجه إلى خبراتهم وخوفه من انعدام ولائهم في الوقت ذاته .

ولحسم هذه القضية. كان لابد وأن تعود مصر إلى عهود سابقة جداً وتتراجع قرناً كاملاً من الزمان لتغرق مرة أخرى فى نظام المماليك. فالمقربون تجذل لهم العطايا والثنايا ويفوزون بمناصب كبيرة ذات مرتبات هائلة : لضمان ولائهم ولحثهم على الإبقاء على نظام الحكم الجديد الذى أغرقهم فى كل هذه النعم ....

وهنا تحوَّل الوطن بالفعل إلى عزبة .... عزبة أكثر قهراً من ذى قبل .... عزبة أبوهم وإللى جابوهم وإللى يتشدّد لهم كمان وصرنا نحيا فى مجتمع من السادة والعبيد ....

العبيد - وياللمهزلة- هم أصحاب العزبة الأصليون والسادة هم من احتلوها ويستولون على خيراتها بالبلطجة والعافية ونظم الأمن الفاشية والوسائل القمعية النازية التى صارت معروفة واضحة حتى للعالم الخارجى الذى لم يلبث أن وصف الناظر الجديد فى واحدة من المجلات الأمريكية الشهيرة بالديكتاتور العجوز الذى يتشدَّق ورجاله طوال الوقت بالحرية فى نفس الوقت الذى تتجاوز فيه نظم أمنه كل الحدود وتدير الدولة على نحو بوليسى خالص وتتجاوز كل القوانين والأعراف وحتى الإنسانيات .... من أجل رجل واحد ....

* * *

طوال ما يقرب من ثلاثة عقود من الزمن خضعت العزبة لقانون مجحف عجيب ينتزع الحرية والإحساس بالحرية من كل مواطن على أرضها ويمنح السلطة والجبروت. كل

السلطة والجبروت لكل من يحتل أى منصب فيها ألا وهو قانون الطوارئ سئ السمعة الذى لم يحاولوا به إصلاح أى خلل فى البلاد بقدر ما كان وسيلة فى أيديهم لتجاوز كل القوانين وقهر كل الحريات وتزوير كل الانتخابات والبطش بكل معارض وسحق كل منافس ..... وبالقانون !!

ولكى تكتمل اللعبة وتبدو أشبه بديموقراطية هزلية فى فيلم من أفلام الدرجة الثالثة غير المكيَّفة. اختار الناظر الجديد بناء على استشارة أو رأى أو وسوسة المحيطين به. اثنين من عمالقة المحاماة والقانون وضع أحدهم على رأس الدولة. ووضع الثانى فى قلب الأحداث لكى يجدا معاً أسلوباً التفافياً قانونياً - وليس حتماً - أخلاقياً لينفذ النظام ما يريد على الرغم من أنف الجميع وبغض النظر عن رضا الشعب أو غضبه باعتبار أنهم أصحاب العزبة. أما هذا الشعب فهو مجرَّد عبيد احساناتهم ..

وبلعبة القانون ودهاء السياسة وصخب المصالح الشخصية ودوى الثراء غير المشروع أو العطايا الكبيرة من بند : أعطى من لا يملك لمن لا يستحق الذى أصبح بنداً رئيسياً فى الميزانية. منذ استولى النظار الأحرار على الحكم . بدأ الفساد يستشرى فى الدولة التى صارت عزبة أكثر من ذى قبل بل أكثر من أى زمن مضى وحتماً أكثر من أى زمن آت. لأنه لم يعد هناك فساد يمكن أن يفوق ما نحن فيه من فساد فى ظل الناظر الجديد الذى فتح باب الفساد بسكوته على فساد أتباعه فنشروا الفساد فى العزبة حتى يصبح

الكل فاسداً. فلا يوجد من يمكن أن يحاسبهم على الفساد حتى لا ينكشف أمر فساده هو شخصياً ....
وبسرعة كما ينتشر الفساد عادة تحوَّلت العزبة الكبيرة إلى عزب صغيرة تستند كل منها على عزبة أكبر وهكذا. وصار هناك مقياس واحد لتولى المناصب واحتلال مقاعد السلطة والنفوذ ..... والفلوس وهو أن تكون عضواً فى العصابة ... أقصد فى حزب السلطة .... .

* * *

مفخرة ناظر العزبة القديم كانت حرب أكتوبر ثم مبادرة السلام فيما بعد. ولكن المبادرة أفقدت النصر الكثير من بريقه لذا فعندما جاء الناظر الجديد إلى العزبة نسى من حوله - على الرغم من أنهم هم أنفسهم من كانوا حول سلفه - كل شئ عن حرب أكتوبر فيما عدا الضربة الجوية باعتبار أنه لم تكن هناك قيمة لإغلاق وإتلاف فتحات النابلم ولا للمشاة ولا للمدرعات ولا لسلاح المهندسين .... فقط الضربة الجوية ولكنهم سرعان ما أدركوا أن هذه لا تصلح كميزة دائمة خاصة وأن شباب العزبة لن يذكروا حرب أكتوبر ولن يستسلموا إلى هذا القول دون مناقشة. لذا فقد بحثوا عن نقطة جديدة تنسب إلى الناظر الجديد. ففكروا فى مشروع توشكى الذى هاجمه الكثيرون أيامها ولكن ولأن رأى سكان العزبة لا قيمة له ولأن العزبة كلها أصبحت مجندة لإسعاد رجل واحد وأسرته بالطبع فلم يبال أحد بأراء المعارضين والمخالفين وأنشأوا المشروع الذى غرقنا بعده فى نقص هائل للسيولة المالية لم نخرج منه

حتى هذه اللحظة وكان من الطبيعى مع نظرية المماليك وإصرار الأمن على اسعاد ناظر العزبة حتى ولو أدى هذا إلى حرق العزبة كلها بمن فيها ولأن الأمن تحرَّك بأسلوب قهرى فاشى لتحقيق السعادة العائلية لسلطان العزبة والعائلة المالكة للسلطة فقد كتم هذا أفواه الكثيرين وساعد مع سياسة التعتيم وتزوير ممثلى الشعب وإرادته على أن ينمو الفساد بكل وجوهه ... فساد إجتماعى .... وفساد سياسى .... وفساد اقتصادى .... وفساد إدارى ..... كل مدير فى إدارته صار يدير الأمور بنظام عزبة أبوه وبقانون عزبة أبوه دون اعتبار للقوانين الفعلية أو اللوائح ولو طالب واحد (مجنون) من سكان العزبة بتطبيق القانون والالتزام باللوائح فالويل والثبور وعظائم الأمور له وخاصة لو لم يكن من قاطنى الحزب الحاكم أو من المجاورين لأصحاب السلطة والسلطان وهذا ينطبق بصورة أضخم على كل مسئول لأعلى .... وأعلى .... وأعلى .... حتى أكبر رأس .... الكل يدير عزبة وليس إدارة أو حتى وزارة ولا أحد يحترم القانون فالقضاء يصدر أحكامه والقانون يعاقب بنصه من يرفض تنفيذها ويعاقبه بالفصل من منصبه وعلى الرغم من هذا ولأنها عزب فكل كبار المسئولين لا ينفذون أحكام القانون .... ويبقون فى مناصبهم .... لأنها عزبة أبوهم ...

* * *

الكل من ناظر العزبة حتى أصغر عيل سياسى فيها يجلس متعنطظاً على شط الترعة ليتشدَّق بالديموقراطية والحرية

واحترام حقوق الإنسان. ثم تسير فى أى مكان من مارينا وحتى أصغر حارة فلا تجد حولك ولا لمحة واحدة من كل هذا فلا أحد يحترم القانون أى قانون وسط فوضى رهيبة سادت العزبة باعتبار أن مترفيها فسقوا فيها ؛ لأنهم من المماليك أو أبناء المماليك أو حتى أقاربهم وأحياناً عشيقاتهم أيضاً. فالمماليك أصبحوا أنواعاً وفصائل وممالك كما كانوا فى العصور السابقة فهناك مماليك السياسة ومماليك مجلس الشعب ومماليك حزب السلطة والجبروت ومماليك الأمن ومماليك المماليك الذين يلتصقون بأى نوع من المماليك لينوبهم من الحظ جانباً وامتلأت كل الشوارع بأنواع مختلفة من المماليك صاروا يسعون طوال الوقت لإثبات مملوكيتهم وتأكيد أنهم من طينة أخرى غير طينة البشر العاديين الخاضعين للقانون والعقاب فتارة يركبون سيارات يفوق ثمن فردة الكاوتش فيها دخل أسرة كبيرة فى عام كامل وتارة أخرى يحملون هواتف محمولة ثمنها يمكن أن يصيب دستة موظفين شرفاء - لو أنه مازال هناك منهم - بسكتة قلبية ومرة يضعون على سياراتهم بادجات خاصة بالسلطات المختلفة وأرقام قصيرة أو مميزة تشير إلى أهميتهم .... المهم أن يثبت كل واحد أنه فوق القانون وأنه من فئة السادة وليس من فئة العبيد الذين هم فى الواقع سكان العزبة وأهلها وأصحابها الحقيقيين...

وفى كل يوم ومع سياسة استقرار الفساد التى يتبعها الناظر الجديد منذ قدومه ازدادت نظرية العزبة توغلاً فى المجتمع وانطحنت الطبقة المتوسطة وانسحقت على

الرغم من أعدادها الهائلة تحت أقدام فئة المستفيدين من السلطة والنظارة وصار المجتمع كله يغلى فى العزبة باعتبار أن العذاب والقهر واستغلال النفوذ والاستفزاز المالى زادت كلها عن الحد وبلغت مستوى يغم النفس وأصبح الغضب بركان يغلى فى العيون .... كل العيون كما قال عبد الحليم حافظ قديماً. وهو يصف إرهاصات ما قبل حركة يوليو ولكن احساس المحتلين بالعزبة جعلهم يتجاهلون كل هذا .... ويواصلون.

* * *

على الرغم من الغضب ،والاعتصامات والإضرابات والتظاهرات والرفض العلنى وتحرشات الشعب بالسلطة وفرحته العارمة بحريق مجلس الشورى وتمنياته التى تبادلها حينذاك والتى وصلت هاتفى المحمول بأن يحترق ونوّابه داخله. ظلت مجموعة العزبة مصرة على جبروتها فلم تكتف بعمالقة مطبخ القانون الذين يطبخون لها كل القوانين المسلوقة التى تريدها فى يوم وليلة فى حين يضعون القوانين التى تهم الشعب فى فريزر الثلاجة. وإنما قررّت أن تستغل الأغلبية التى حصلت عليها بما ورثته من حركة يوليو من تزييف وتزوير وتدليس لتغير المواد التى كانت تحول بينها وبين ديكتاتوريتها فى الدستور ... وعملت على تغيير الدستور نفسه ... إلى الأسوأ طبعاً ... وهكذا وبعد أن ظل الدستور يحوى مواد أساسية للحريات. لم يتم تطبيقها قط منذ يوليو ١٩٥٢م. ألغوا هم هذه المواد فى سابقة لم

تحدث فى أى مكان فى العالم عبر التاريخ وارتكبوا أكبر خيانة لأوطانهم سيحاسبهم عليها التاريخ طبعاً وربما يحاسبهم عليها سكان العزبة يوماً وباعوا ضمائرهم وشرفهم وشرف أوطانهم وحريتها. فقط حتى يرضى عنهم ناظر العزبة الذى لم يكتف بنظارته لها وإنما بدأ يستعد لنقل النظارة إلى وريثه اتباعاً لسنة وضعها ناظر عزبة أخر فى الشمال لا أحد يدرى كيف سيحاسبه عليها التاريخ بعد أن يسقط وريثه. وإن كنا نعرف جميعاً كيف سيحاسبه عليها خالق الكون العظيم الذى أكد أنهم يمكرون . ويمكر اللّه . واللّه خير الماكرين ....

العزبة بعدما يقرب من ثلاثة عقود من الزمن أصبحت بالفعل عزبة أبوهم واللى جابوهم واللى يتشدَّد لهم واللى يبوس نعل جزمتهم واللى يلحس تراب رجليهم ويمسح (....) . وليس للشرفاء أو حتى لأفراد العزبة العاديين. وناظر العزبة ورجاله لا يضعون فى اعتبارهم لحظة واحدة أنهم قد يسقطون أو يخسرون كل هذا على الرغم من أنهم ليسوا فى وحشية صدام حسين ولا يمتلكون أجهزة أمنية قمعية تفوق ما أمتلكه شاه إيران ويبوسون كعب حذاء أمريكا ليل نهار ؛ لضمان حمايتها لهم وتأمينها لعرشهم فى العزبة على الرغم من أن تاريخ أمريكا يقول ؛ إنها غدَّارة وحالها لا يدوم أبداً .... لأنها وبكل بساطة ديموقراطية وليست عزبة... أبوهم .

* * *

منذ قفز النظّار الاحرار بقوة السلاح إلى السلطة وتحويلهم مصر من دولة حرة ذات سيادة إلى عزبة أبوهم واللى جابوهم. تغيَّرت سمات التعامل فيها على نحو عجيب يظهر بشدة ووضوح فى هذا العصر الذى أهلكنا بحديثه المستمر عن الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان. فى نفس الوقت الذى تزكم فيه صحافته أنوفنا ويغم فيه إعلامه نفوسنا بنفاق ما بعده نفاق وعلى نحو صار مستفزاً للجميع ومثيراً للضحك والسخرية فى الوقت ذاته !!

فلو وقف الناظر موقف المتفرِّج أمام حدث يثير الدنيا كلها فهو حكيم رصين ولو ترك مواطنيه يجلدون بالسياط فى الدول المجاورة فهو يحرص على رزق الآخرين ولو أهانتنا الدنيا وداست علينا بالجزم وسكت فهو صمت الحكماء وبالطبع لا ينقلون سوى عُشر الأخبار التى يمكن أن تذكر بالمصادفة جزءاً ما لصالحه ويخفون تماماً كل ما ينشر ضده وهو يساعدهم بعدم قراءته لأى شئ فمجلة تايم تنشر أنه الديكتاتور العجوز. فلا يشار إلى هذا قط فى أية وسيلة إعلامية نفاقية تابعة للدولة ويقبض محرروها رواتبهم منها وفى الوقت نفسه نجد خبراً يتحدَّث عن الإشادة العالمية باقتصادنا والناس تأكل الطوب وتلبس الهلاهيل فى الشوارع على الرغم من أننى لا أشك لحظة فى إشادة دول أخرى باقتصادنا فالصين مثلاً لابد وأن تشيد بهذا الاقتصاد الذى أفسد فيه الفساد الصناعة فامتلأت أسواق مصر بالبضائع الصينية مما أنعش الاقتصاد الصينى أما أمريكا فلابد وأن تشيد بالسياسة الاقتصادية

الحكيمة لناظر العزبة الذى تولّى النظارة وقيمة الدولار الأمريكى لاتتجاوز الثمانين قرشاً ومازال مستمراً فى حكمه السلحفائى الدائم والدولار يقترب سعره من خمسة جنيهات وستين قرشاً !!

أما باقى دول العالم والتى أغرقت أسواقنا بسلعها فهى سعيدة بالطبع بهذا الاقتصاد المصرى الذى عدَّل ميزان مدفوعاتها ....

هم ليسوا كاذبين إذن وإنما نحن سكان العزبة الذين لا نجيد شراء السلع ولا التعامل مع الشركات التى أنهكتها الرشاوى وضاعف تكلفة إنتاجها الفساد وقهرت استمراريتها الديكتاتورية والشعب نفسه غارق فى عالم بوليسى أمنى حوَّل كل شئ إلى كارثة ....

* * *

مصطفى النحاس كان رئيساً لوزراء مصر عندما كانت دولة ديمقراطية. كان ينتظر القطار على رصيف المحطة (ضع خطاً هنا). وتأخر القطـــار (ضع خطين). فذهب ليؤدى الصلاة فى مسجد المحطة (ضع ثلاثة خطوط) وعند خروجه من الصلاة مع باقى المصلين ودون أمن دولة ونظارات سوداء وحواجب معقودة واجهه شابا وسأله عن هويته فلما تأكّد منها ومن أنه رئيس الوزراء صفعه على وجهه (ضع أربعة خطوط) فما كان من رئيس الوزراء إلا أن أمسك به وذهب معه إلى قسم قصر النيل لعمل محضر بالواقعة (ضع خمسة خطوط). وبعدها شعر بالشفقة عليه فتنازل عن المحضر !!

قصة نشرت وقتها فى الصحف تجعلك تعرف الفارق بين الدولة والعزبة بدون شرح أو تفاصيل أو تعليق ....

الملك فاروق كان يرغب فى شراء حجرة نوم جديدة لزوجته الثانية ناريمان ولم تكن لديه ميزانية لهذا (ضع عشرين خطاً). فتقدم بطلب سلفة للبرلمان (ضع خمسين خطاً). ولكن البرلمان رفض لأن الدستور لا يسمح بهذا (لا تضع أية خطوط . لكن الطم على ما أصابنا فى عهودهم)....

إننا فى عهد نظّار العزبة لا يمكننا أن نتخيَّل وزيراً وليس رئيس وزراء يقف فى انتظار قطار عادى دون أن يتم إخلاء المحطة وضرب الناس بالجزمة بحجة الأمن. أما عن ميزانية رياسة الجمهورية فهى أمر أشبه بالكفر فى عهد عزبة مصر التى احتلها النظار منذ حركة يوليو غير المباركة ....

وختاماً لهذه السلسلة التى أرهقتنى كما أرهقتكم دعونا نعيد النظر فى علم مصر فهو يتكون من نسر فى منتصفه يحلّق فى انتظار الخراب ولون أحمر يعبِّر عن الدماء التي أريقت فى المعتقلات. ويحكم قانون الطوارئ العار لون أبيض يعبِّر عن عقول حكام ومسئولى عصر الإحتلال النظارى ولون أسود هو فى الغالب إما لون ضمائرهم أو لون هذه الأيام السوداء التى نعيشها فى ظلهم .... ولأنهم حوَّلوا كل شئ إلى أمن فى أمن فى أمن . فأنا أقترح تغيير اسم مصر من جمهورية مصر العربية إلى عزبة مصر البوليسية الأمنية ولو أرادوا فعل هذا فسيفعلونه ولديهم مجلس تزويرهم ليوافق على أى شئ .... لأنها فى الواقع لم تعد دولة وإنما عزبة .... عزبة أبوهم وإللى جابوهم .

منذ بدأ عصر مبارك بدأت معه مجموعة من المصطلحات التى ابتكرها أبالسة السياسة لكى ترتبط بعصره كما ارتبطت عبارات وشعارات ومصطلحات أخرى فى عهود سابقة منذ سقطت علينا حركة يوليو من سماء المصير .....

عصر ناصر ارتبط بعبارة (ارفع رأسك يا أخى . فقد مضى عهد الاستبداد) وفى عصره انحنت كل الرءوس وانكسرت كل النفوس وضاعت الكرامة وطارت الرءوس ....

وفى عصر السادات ارتفعت عبارة (سيادة القانون) ثم حدثت مظاهرات انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير فخرج علينا السادات ليؤكِّد أن القانون له أنياب ومخالب وأصدر أشرس قوانين مقيِّدة للحريات فى عهد الحركة غير المباركة ...

وفى عهد مبارك ارتفع شعار (الطهارة والشفافية) فلا رأينا فيه طهارة (اللهم إلا التى يجرونها فى الموالد للأطفال) ولا عشنا لمحة واحدة من الشفافية ....

بل لقد اشتهر عهده بالتعتيم على طول الخط وعلى كل المستويات فمع الإصرار على الشعار الخداك أن تجد لمحة واحدة من الشفافية من حولك ....

فالشفافية أمر يستحيل حدوثه فى ظل نظام فاشى ديكتاتورى يعتمد فى بقائه اعتماداً كاملاً على الأمن والأمن وحده ...

نظام استخدم القانون على أسوأ وأبشع صورة ممكنة بعد أن توصَّل أبالسة السياسة والقانون إلى أصل اللعبة : إذ يكفى أن تزوِّر الانتخابات وتضع من تريد على مقاعد مجلس الشعب وبعدها افعل ما تشاء فالمجلس مجلسك وأبالسة القانون يحيطون بك ومقعد السلطة برَّاق زاه والشعب محتل مستكين وكل ما يحلو لك يمكنك أن تصدر قانوناً بشأنه ... ليه لأ .....

* * *

فيلم الزوجة الثانية واحد من أروع أفلام السينما التى انتجت فى مصر عن نص روائى وفكرة جديدة مصرية خالصة وليس مقتبساً عن فيلم أجنبى كما هو الحال هذه الأيام ...

وفى الفيلم أراد العمدة الذى يمثل الحكومة الحصول على زوجة فلاح مسكين يمثل الشعب ولكن الشرع والقانون كانا يحولان دون هذا ولكنه قال عبارة مدهشة هى لسان حال هذا العصر وكل عصر منذ قيام حركة يوليو .....

قال " المأمور بتاعنا . ومكتب الصحة بتاعنا " .... وهكذا وبناء على أنه يملك الجهات السيادية فى القرية فقد زيَّف كل شئ؛ فأجبر الفلاح على تطليق زوجته وتجاوز عدتها بإرهاب شيخ القرية ومأذونها وتزوَّجها فى الليلة التالية على نحو هو فى واقعة اغتصاب ..... وبالقانون ....

وهذا ما يحدث فى هذا العصر بالضبط ... العمدة هو النظام الذى يملك مجلس شعب جاء بإرادته وتزويره وتلاعبه

ورفضه الإشراف الدولي بحجج واهية مدروسة والعروس هى الشعب الذى تغتصبه الحكومة كل يوم وكل لحظة وحتى كل فمتو ثانية ..... وكله بالقانون !!

وهذا يقودنا إلى السؤال الرئيسي:كيف تكون هناك شفافية لحكومة تغتصب شعبها كل لحظة ؟!..كيف تفضح نفسها وتكشف فسادها وتعلن قبحها ؟!... كيف؟!... ابحث فى كل مكان حولك وأخبرنى أين تكمن هذه االشفافية ؟!... فى قعر البئر أم فى معتقل وادى النطرون أم فى بطن الزير ؟!.....

ابحث ... ثم ابحث ..

* * *

فى النظم الذكية يحافظون على أسرارهم وأسرار الدولة على نحو أدق منا. ولكن ولأنهم أذكياء فما من مواطن واحد يشعر حتى أنهم يخفون عليه شئ .... أى شئ !..

ففى تلك الدول الديموقراطية بحق وحقيق يمكن لأى مواطن أن يحصل على أية وثيقة حكومية مادام يسددّ رسوم تصوير نسخة منها ... وهذا لأنهم لا يخفون شيئاً عن الشعب الذى ينتخبهم ويختارهم لحكمه بإرادته وما يريدون أن يخفوه يفعلون هذا ببراعة ودون استفزاز أو بلطجة او يضعون عليه عبارة (سرى للغاية) فلا يحق لأحد الحصول عليه ....

أما هنا فى ظل نظام قرفنا وفقع (....) بالحديث عمال على بطال عن الشفافية فحاول أن تعرف عدد الركاب الذين

يستقلون أوتوبيس شبرا فى اليوم الواحد وانظر كم من العقبات سيواجهك وكم من نظرات الشك والتوتر ستحيط بك وكم سؤال عصبى سينهمر عليك مع كومة من الاتهامات قد تنتهى فى النهاية بتحويلك إلى مباحث أمن الدولة لمحاولتك معرفة هذا السر الرهيب فى دولة الشفافية (هاأوو) ...

فى عصر الشفافية لا أحد يعلم كم تبلغ الميزانية الفعلية لرياسة الجمهورية وكم تبلغ نسبتها من الدخل القومى المصرى الذى يفترض أن يخص الشعب والدولة .... فى زمن الشفافية لا أحد يعرف كم يبلغ دخل الوزراء الذين يملكون فيلات وقصور فاخرة بملايين الملايين وهم يحكمون شعباً يأكل الزلط من فرط الجوع ....

* * *

مصطلح الشفافية من الناحية السياسية يعنى أن يعرف الشعب كل ما يدور على أرض وطنه وأن يكشف كل مسئول عام من أصغر موظف حكومى وحتى رئيس النظام نفسه أوراقه وميزانيته وأن يحاسبه الشعب على أى مليم إضافى لم يندرج تحت بند الميزانية المعلنة .... فهل لدينا فى ظل نظام الحكم الحالى أى شئ يشبه الشفافية ؟!...

الشفافية هى أن يتم إعلان جميع القرارات فى وضوح وإعلان أسباب إصدارها أيضاً وألا يكون هناك ما يسمى بقرار سيادى غير معلن يكتسب قوته فقط من بلطجة

وسطوة من أصدره وليس من القانون الفعلى المعروف للكافة .....

الشفافية تعنى أن يعرف الشعب ويفهم .... و يوافق ....

الشفافية أن تعرف من أصدر القرار ولصالح من حتى لا تصدر قرارات وقوانين لصالح أشخاص بعينهم أو لتغذية فساد كبار يعتمدون على التعتيم التام لممارسة فسادهم وبلطجتهم على أوسع نطاق وبعين باكسة لا تطرف ولا تخاف من ربها مادام رأس نظامها يرضى عنها ويحيطها بحمايته ....

الشفافية أن تضاء أعمدة نور فى كل مصلحة حكومية فلا يستطيع أى مسئول فيها أن يتبلطج أو يفسد أو يثرى من مال الشعب بينما يقف الشعب نفسه ذليل أمامه ....

الشفافية هى الحرية والديموقراطية والوضوح وكلها عوامل لا تناسب النظام ؛ لأنها عوامل مضادة للفساد مانعة للرشوة مقيدّة لحرية البلطجة كاشفة لاستغلال السلطة والنفوذ ....

ولهذا . ففى ظل هذا النظام انسوا الشفافية .. تماماً .. وللأبد !!

* * *

سؤال هام جداً ... هل سياسة التعتيم هذه فردية أم هو منهج أساسى للدولة تمارسه على نحو منظم تم تدريب الجميع عليه منذ ركب هذا النظام الحكم ؟!....

لنجيب هذا السؤال احمل فقط آلة تصوير واخرج لتصوير أية منطقة جميلة فى مصر وانظر ماذا سيحدث !! لو أنك فعلت هذا فى أى مكان فى العالم لما أعترض سبيلك مخلوق واحد فأنت مثلاً تستطيع تصوير البيت الأبيض فى واشنطن وقصر الرياسة فى باريس وقصر باكنجهام وقصر امبراطور اليابان دون أن يسألك مخلوق واحد عما تفعل ؛ لأنه لا أحد يخفى شيئاً ويخشى من كشف أمره ولا أحد مصاب بهستيريا أمنية ولا أحد يسرق أو ينهب أو يرتشى أو يفسد ويحمل فى أعماقه شعور بالذنب يجعله يخشى طوال الوقت أن ينكشف أمره . وحتى من يفعل منهم فهو مضطر لأن يفسد فى الخفاء ويخفى فساده فى براعة حتى أن الف ألة تصوير لا تكفى لكشفه ....

أما هنا . فالشفافية مطلقة حتى أن الكل يخشى كشف أمره والكل يشعر أنه هناك مصيبة لابد من إخفائها وبلوى زرقاء لابد من مداراتها . والأمن أكثر من يدرك أنه يعمل لحساب نظام غارق فى الفساد حتى أذنيه ؛ لذا فهو يصاب بالذعر كلما رأى شخصاً يلتقط الصور لأنه قد يكشف تكاسله وتقاعسه وفساده ورشوته وهو الذى يفترض منه حماية القانون ومقاومة الفاسدين والمرتشين ...

كل هذا لأن الكل على نحو منهجى يدرك أنه لا توجد من حوله ذرة واحدة من الشفافية وأنه من الضرورى أن يدارى ويعتم على بلاوى ومصائب النظام ... بشتى الطرق !!

* * *

لو أن النظام يدرك أو حتى يتصوَّر أو يصدِّق أنه هناك ولو لمحة واحدة من الشفافية لأذاع جلسات مجلس الشعب على الهواء مباشرة ولما أخضعها للتنقيح والمونتاج قبل عرضها ؛ لأنه المفترض أنها جلسات تمثِّل الشعب فكيف يتم إخفاء ما يحدث فيها عن الشعب ؟!....

النظام مهما هللَّ أو فعل لن يقنع أصغرْ عيل أهبل أن لديه ولو فمتو شفافية يمكنه أن يقابل بها رب كريم بعد عمر قصير إن شاء اللّه ومهما صرخ وهتف بعبارات شيك ودمها خفيف لن يمكنه أن يعطينا دليلاً واحداً على الشفافية لأنه هو نفسه لا يعرف شيئاً عن الشفافية ولا حتى عن تعريفها العلمي ؛ لأنه نظام تعتيم وفساد وإثراء غير مشروع ونهب في خيرات البلد وبلطجة على شعبه .... وبالقانون الذي يملكونه ويملكون الموافقين عليه بنظام موافقون .... موافقة ..

النظام نظام فاشي و ديكتاتوري و بوليسي و لا تصلح معه الشفافية بأي حال من الأحوال ولكنه وكأي نظام قبيح يسعى للتجمُّل على أوسع نطاق ولأنه لا يستطيع في ظل فساده وانهياره الداخلي أن يخفي قبحه فهو يغطيه بعبارات حلوة ذات إيقاع رنان ولكنها كأي مكياج لا تحوي ذرة واحدة من الحقيقة ....

وعلى الرغم من كل ما سبق فأنا أؤمن تماماً بأنه هناك شفافية في هذا العصر ولكنها شفافية من نوع مختلف تماماً فالنظام وحكومته يؤمنون بشفافية الشعب

فالشعب بالنسبة لهم شفاف لا يرونه ولا يشعرون بوجوده ولا يريدونه أن يتدخَّل في شئونهم .... هذه هي الشفافية الوحيدة التي يؤمنون بها .... ولنا ربنا.

*   *   *

السادة الأكابر رجال النظام والحكومة نعلم بالطبع كشعب غلبان أنكم السادة ونحن العبيد لكن حتى العبيد لهم عند سادتهم حقوق ولو اهملوا منحهم هذه الحقوق يثورون ويغضبون ويكسرون ويدمرون ويكون كل هذا فى المعتاد كما أكدّ لنا التاريخ وكتبت فصوله مفاجأة للسادة الذين يستنكرون غضب العبيد فى بداية الثورة ويصرون على ممارسة دور السادة ويرفعون الكرباج ويستخدمون أجهزة الأمن فتشتد الثورة أكثر ويثور العبيد أكثر ويجرى التاريخ بسرعةليجد السادة متدلين من حبال المشانق المصنوعة من كرابيج أمنهم وينتصر العبيد ....

هذا ما حدث عبر التاريخ كله وما يبدو أنه على وشك أن يتكررّ فالناس غاضبة كما كانت دوماً ولكن غضبها لم يعد كما كان دوماً....

لقد اصبحوا يضربون ويقاتلون ويقاومون ويعتصمون ويتظاهرون ويرفضون ويتحدون....

وكل هذه إرهاصات ثورة لم تنتبهوا إليها لأن الكرباج مازال فى أيديكم لم ينتزع منكم ولم يلتف على أعناقكم بعد ....

ولكنه حتماً سينتزع... وحتماً سيلتف وحتماً ستتدلّون منه فى نهاية اللعبة لأنها ليست لعبة جديدة تمارسونها لأول مرة...

إنها لعبة مارستها أنظمة عديدة قبلكم وستمارسها أنظمة عديدة بعدكم وستنتهى دوماً النهاية نفسها ...

انتبهوا أيها السادة ... انتبهوا قبل فوات الأوان وقبل خراب مالطة ... انتبهوا إلى ان الشعب لم يعد خائفاً مستكيناً كما كان والعالم لم يعد كبيراً متسعاً كما كان والإدانة الدولية لم تعد بعيدة ومستبعدة كما كانت وشنق قمم النظام لم يعد امراً مستبعداً كما كان انتبهوا وإلا فذنبكم على جنبكم.

* * *

العالم كله من حولنا يتطوّر بسرعة الصاروخ أيها السادة الأكابر أصحاب البلد (كما تظنون) ونحن هنا (بفضلكم) نتراجع ...ونتراجع...ونتراجع.... تراجعنا سياسياً وأصبحنا مسخة بعد أن كنا ريادة وقدوة ... وتراجعنا أقتصادياً بعد أن كان لدينا فائض يمكن أن يؤمن شيئاً من عيشنا وتراجعنا اجتماعياً بسحق الطبقة الوسطى وزيادة مساحة الطبقة الفقيرة مع كل قرار من قراراتكم المفاجئة المباركة ذات الفكر الديكتاتورى والديناصورى العجيب ...

تراجعنا حتى فنياً بعد أن صارت كل جهه فى مصر رقيباً على الفن وما يأتى فيه من إبداع ....

لو كان لديك فى العمل الفنى ضابط شرطه فأنت تحتاج إلى موافقة الداخلية ولو مهندس تحتاج إلى موافقة نقابة المهندسين ولو أنه قاض تحتاج إلى موافقة وموافقة وموافقة ... ثم بعد كل هذا يأتى من يتساءل : لماذا لم يعد هناك من يبدع ؟!!

الكل (فى عصركم) ليست لديه أدنى ثقة فى نفسه أو فى كيانه والكل يبحث عن سلطة الطغيان والمنع والقهر والكبت وما من شخص واحد يدرك أو حتى يريد أن يدرك أن مولّد الانفجار الرئيسى هو الكبت ....

ولكن كل هذا التضييق يثبت أنكم تعلمون وتدركون أن الثورة قادمة ....

كل هذا الجبروت والطغيان يثبت أنكم على علم تام بكراهية المجتمع كله ولوجودكم ...

وتدركون أنكم زائلون كما زال من قبلكم ولكنكم تصرّون على ألا يكون هذا الزوال بإرادتكم ولكن على الرغم منكم....

تصرّون أن تكون نهايتكم كما هى حياتكم .... بالكرباج .... إما فى أيديكم أو حول أعناقكم ... .

* * *

الناس فى الشوارع والطرقات وعلى المقاهى وفى جلساتها الخاصة غاضبة ... غاضبة مما تفعلونه بها ... غاضبة من إهمالكم لها ...غاضبة من جبروتكم عليها ...غاضبة من طغيانكم ...من تجاوزاتكم .... من فسادكم من قهركم لكل من يطل برأسه عليكم .....

الناس غاضبة وأنتم لم تنتبهوا بعد ... أو أنكم منتبهين (وهذا هو الأرجح) ولكنكم تتعاملون مع الموقف بالأسلوب الوحيد الذى تفهمونه وتجيدونه .... بالكرباج ....

لويس السادس عشر فعلها قبلكم وواجه غضب شعبه بالكرباج فثار شعبه أكثر واقتحم عليه قصره وانتهى به الأمر على المقصلة وأثر المفاجأة لم يذهب عنه بعد .....

إيفان قيصر روسيا أيضاً أخطأ الخطأ نفسه عندما ثار شعبه وغضب فجمع جيوشه وأطلق نظم أمنه وتصوّر أن القوة وحدها هى سبيله إلى تفادى غضبة الشعب وثورته لأنه كأى حاكم طاغية ديكتاتورى يعتمد فى بقائه فقط على نظم أمنه وليس على تأييد شعبه أو حبه لذا فقد أنتهى به الأمر إلى كهف مجهول ليطلق الثوار النار عليه وعلى أسرته ويبيدون فترة حكمه كلها ....

شاه إيران أيضاً لم ينتبه إلى كل هذا وجعل دولته دولة بوليسية من الألف إلى الياء وطغى وتجبّر وظلم شعبه وطحن فقراءه ونسى قوت بسطائه ليفرد الولائم والمآدب احتفالاً بألفية الدولة الإيرانية الفارسية فغضب شعبه وثار .... ولأنه لم يتعلّم الدرس الذى لا يتعلّمه الطغاة عادة فقد واجه غضب شعبه وثورته بالكرباج وبنظم أمنه الفاشية القوية ولم يتصوّر لحظة واحدة أن القوة لا يمكن أن تربح معركة ضد شعب ثائر ... وهكذا سقط شاه إيران وهرب من وطنه وتاه يبحث عن مأوى حتى جاء إلينا ومات على أيدينا

* * *

الرئيس صدام حسين حكم شعبه بالحديد والنار واغتر بقوة جيشه الذى موّله الجميع خوفاً من إيران فتجبّر واعتدى واطمئن إلى أنه يحيط نفسه بأجهزة أمنية قمعية جبارة

وإلى أنه رئيس دولة قوية يهابها كل من حولها فأتته الضربة من أخرين أكثر قوة سلطهم الله سبحانه وتعالى عليه فانهزم واندحر و باعته أجهزته الأمنية وفرّ من حوله كل من كانوا يمنحونه الإحساس بالقوة ووجد نفسه وحيداً أعزل ثم هارباً فقد كل من يحب ثم أسيراً سجيناً وبعدها على حبل المشنقة الذى طالما علق فيه أخرين وهو فى ذروة جبروته وقوته ...

الكل رأى هذا وشاهده وعاصره ..... ولم ينتبه أحد .....

لم ينتبه السادة الأكابر إلى أن هذا إشارة لما يمكن أن يكونوا عليه خلال سنوات قليلة ....

تماماً مثل كل الجبابرة قبلهم وكل الطغاة أسلافهم اغتروا بقوتهم وبأجهزتهم الأمنية القمعية ...

ولم يتعلموا الدرس أبداً....أبداً.... أبداً....

ولهذا فنحن نقولها من الآن : انتبهوا إيها السادة واستيقظوا من غفوتكم قبل أن تعصف بكم الثورة القادمة ....

انتبهوا إلى أن العالم صار قرية صغيرة وما يمارس هنا قد يقلب عليكم هناك وإن كنتم أقوياء فالخالق عزّ وجلّ قادر على أن يرسل إليكم من هو أكثر قوة منكم ....

انتبهوا إلى هذه الكلمات ولا تهملوها فما يطالبكم به الشعب اليوم سينتزعه منكم غداً .....أو حتى من جثثكم فالشعوب هى التى تربح وتنتصر وتبقى دائماً والطغاة هم من يذهبون ....

انتبهوا إلى أن التاريخ أثبت هذا عشرات المرات ....انتبهوا وإلا فلا تلومن إلا أنفسكم ....

الجزء الثاني
في المسألة الأمنية

من أكبر الألغاز المستعصية في زمننا الحالي وفي هذا العصر الذي نكبنا فيه أنه يرتبط بنظام ديمقراطي الكلمة ديكتاتوري الفعل يقول دوماً ما لا يفعل ويفعل أبداً ما لا يقول هو لغز الأمن فمن العسير مهما حاولت ومهما درست ومهما ناقشت ومهما عرفت أن تفهم كيف يفكر الأمن في بلدنا وكيف يتخذ قراراته الإدارية المانعة التي زادت وتعاظمت حتي أصبحت هي القانون الأول الذي يحكم مصر التي لم يعد بها قانون واحد يحترم حتي قانون المرور.. اللهم إلا قانون الغاب!..

ولو أنك شرحت ما يفعله الأمن في بلدنا لأي متخصص في الطب النفسي لأخبرك علي الفور بأن من يفعل هذا مصاب بعقدة نفسية أو بعدة عقد نفسية يساندها غياب القانون أو وجود قانون الطوارئ المزمن الذي أصبح سمة من سمات عصر لا يحترم أي قوانين حتي القوانين التي يصدرها هو نفسه لنفسه تصرفات الأمن في مصر توحي بأن مسئوليه مصابون بعقدة الاضطهاد وبنوع من الهوس الأمني وبخوف مرضي من كل ما لا يفهمونه أو تعجز عقولهم القاصرة عن فهمه حتي إنهم أصبحوا متأخرين بشدة عن الزمن الذي يعيشون فيه والغياب التام لحرية الفرد وحقوق المواطن والإنسان. في عصر سيوسم دوماً وأبداً بأنه عصر بناة هرم الفساد الأكبر يساعدهم

علي التأخر أكثر وأكثر حتي لم يصيروا أضحوكة شعب مصر فحسب بل أضحوكة المنطقة كلها لأنهم يمنعون بقرارات إدارية ما تسمح به حتي الدول القديمة التي كنا يوماً نسبقها بقرن كامل من الحضارة على الأقل الأمن طبعاً لا يعترف بأنه أضحوكة ولا بأن تصرفاته ديكتاتورية ساذجة ومتخلفة ولا تمنحه أي تفوق سوى أن النظام مصاب بهلع مرضي من أن يفقد مقعد السلطة فأطلق يده الباطشة في المجتمع كله وحاول أن يخفي عقدة الخوف داخله خلف عقدة الجهل المرضي عند نظم أمنه التي أصبحت تحارب كل ما لا تفهم ونادراً أساساً ما تفهم شيئاً..

* * *

مشكلة رجال الأمن فى مصر هى أنهم جميعاً يملكون معلومات طالب فى الثانوية العامة بافتراض أن هذا الأخير لديه معلومات من الأساس ولأن رجل الأمن فى بلدنا شبه منعدم الثقافة وبعيد كل البعد عن تطورات العلم والتكنولوجيا ويمتلك بفضل النظام الحكيم سلطات واسعة لا حصر لها فى فعل كل ما يريد وارتكاب كل البلاوى والمصائب بتصريح على بياض مادام يفعل هذا من أجل حماية النظام الذى يهدمه هو شخصياً كل يوم فهو يصاب بالهلع من كل ما لا يفهمه ويبادر بسرعة إلى منعه دون أن يحاول حتى استيعابه ربما لأن قدراته العقلية قد

توقفت عند قدرات أى بلطجى يحكم مجتمعه بالقوة والبطش وليس بأية لمحة من الفهم والمعرفة ....

وبناء على هذا صار الأمن فى بلدنا هو أكثر الجهات تخلفاً على الرغم من أنه يفترض فى الأمن فى أى بلد محترم بحق وحقيقى أن يسبق التكنولوجيا الهامة بخطوتين على الأقل لا أن يتخلف عنها بألف خطوة كما هو الحال من حولنا ...

فى العالم أجمع من الولايات المتحدة حتى دول أفريقيا توجد وسائل متطورة لكشف التزييف والتزوير وبناء عليه فمنذ تسعينيات القرن العشرين ومن أولها كانت الطابعات الملونة متاحة للجمهور الذى يمكن أن يبتاعها من أى مكتبة أو متجر للطابعات مادام يمتلك ثمنها ....

أما هنا فالحال يختلف سالأمن عندنا مصاب بالبارانويا ويرى أن الكل حرامى ومجرم ويأكل مال النبى أو أنه أمن متخلف عاجز لا يمكنه كشف الفارق بين عملة ورقية صحيحة وأخرى مزورة أو أنه يستطيع ولكن هذا يحتاج إلى عمل وجهد ودقة وذكاء ... وأصعب ما فى الامر مسألة الذكاء هذه ....لذا فلا داع للعمل وبذل الجهد ...

فليمنع آلات التصوير الملونة ويريح دماغه ويسقطنا نحن فى بحيرة الجهل وهو بالطبع لا يجد آية غضاضة فى أن يتخلف المجتمع من حوله فهو نفسه متخلف المهم أن يبقى النظام الفاشى الذى يعينه ....

* * *

منذ عدة سنوات فى المملكة العربية السعودية صدرت فتوى بمنع بيع واستخدام الهواتف المحمولة التى تحوى

كاميرا تصوير ... أيامها ضحك صديق سعودى من الفتوى وأخبرنى أنه يطلق على هذه الفتوى وأمثالها اسم الفتاوى الميتة لأنها فتاوى تتحدى التطور العلمى ولقد أثبت التاريخ انه من المستحيل ومنتهى منتهى الحماقة أن يقف أى انسان فى وجه التطور مهما كانت لهذا التطور مساوئ؛ لأن قطار التطور بالغ السرعة ويكتسح الجهلاء فى طريقه حتماً مهما بلغت قوتهم أو بلغ جبروتهم وبسرعة يرميهم فى مزبلة التاريخ ويمضى هو فى طريقه لينتصر فى النهاية ...

وهنا فى بلدنا الذى صار بلداً بوليسياً من الطراز شديد التخلف يقف الأمن دوماً فى وجه التكنولوجيا والتطور والعلم فقط لأنه أجهل من أن يفهمه أو بحجة أنه ليست لديه الإمكانات المادية للتصدى له على الرغم من أنه ينفق المليارات سنوياً لشراء أدوات القمع والأرهاب لمواجهة المواطنين البسطاء ثم يضطر لعقد صفقات مخزية مع الارهابيين الحقيقيين الذين يمكنهم الحصول بسهولة على كل ما يمنعه مهما منعه ...

والفتاوى الامنية لمنع وحظر استخدام وشراء وبيع التكنولوجيا المتقدمة عديدة وكلها تؤدى فى النهاية إلى نتيجة بسيطة الا وهى تخلف شعبنا المسكين المقهور عن ركب التقدم الذى وصلته الدول العربية الأخرى من حولنا باستثناء الحلوة المقطقطة ليبيا طبعاً والتى يحكمها نظام أمنى ما يتخيرش عن نظامنا اللهم إلا فى أن نظامنا أشيك فى زيه وكله باشوات وبهوات ... وبرضه متخلفين علمياً

وتكنولوجياً ... وربما يتصور الأمن أنه بهذا يحمى المجتمع أو ربما يدرك بعضه أن يحمى نظاماً فاسداً ولكن الواقع أنه يحمى نفسه من أمور يعجز عن فهمها ....

جهاز تحديد الموقع العالمى أو ال " Global positioning "والمعروف عالمياً باسم "GPS" هو نظام معروف منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين ويستخدم فى العالم كله وفى دول الخليج والمغرب العربى أيضاً وهو نظام معروف ومفيد للغاية بالنسبة لأى قائد سيارة أو حتى لشخص متحرك حيث يحدد له موقعه ويقوده إلى أى مكان يرغب فى الذهاب إليه حتى لا يتوه أو يضل أو يفقد طريقه ...

ولكن الأمن عندنا لم يستطع فهم هذا النظام طوال هذه السنوات أو لم يعرف كيف يتعامل معه ولأنه حاصل على الثانوية العامة مع دراسة قانونية علمته أنه أكبر من المواطنين العاديين وأن كلمته مسموعة حتى ولو كانت متخلفة باعتبار أن النظام جعله سي السيد على مصر كلها لذا فقد منع استخدام جهاز تحديد الموقع دون أى منطق أو عقل ... فقط بعقدة الاضطهاد وسيف القوة والجبروت ....

وبأى منطق فى الدنيا حاول أن تجد سبباً لهذا المنع ؟!.. المواطن سيعرف موقعه ... طب وفيها إيه ؟!.. ما يعرف !!...

لماذا يبدو للأمن أنه من الخطير جداً أن يعرف أى مواطن موقعه أو يعرف عنوان أى شئ فى مصر مادام مقر رياسة

الجمهورية نفسها معروفاً للجميع ؟!.. حقيقة ... لست أدرى!!

ولست أفهم !!.. ربما يفهم الأطباء النفسانيون إذا ما عرضنا عليهم الامر.

والأمن يحارب فكرة نظام تحديد الموقع بأسلوب عبيط ومتخلف ربما كان يصلح فى بلاد الواق واق فى الستينيات ولكنه حتماً لا يصلح فى زمن الكمبيوتر والانترنت والسماوات المفتوحة ..

وكل جهاز يصل إلى مصر ويحوى نظام تحديد الموقع .يتم منعه من الدخول أو تعديله على نحو يجعل العالم كله يتعامل معنا باعتبارنا عبيط القرية فقط لأن أمننا عبيط ولا يدرك أن هناك شبكة انترنت يمكنك أن توصل الجهاز أى جهاز اليكترونى بها وتزيل برامجه وتعيد انزالها عليه على النحو الذى تريده ...

*　　*　　*

الشباب فى مصر يعتبرون أن الأمن هو أكبر بلياتشو فى القرن الحادى والعشرين وهو ليس مجرد بلياتشو عادى ولكنه بلياتشو متخلف من القرن التاسع عشر يعاقب المواطنين على جهله وتخلفه ويسعى طوال الوقت بكومة من اطنان القرارات لدفع الشباب والمجتمع كله إلى الخلف فى سلم الحضارة الذى تجاهد الدول الأخرى لتسلقه فيما بينها لتبلغ قمته ...

والشباب يضحك على هذا البلياتشو ولا يحترمه قيد أنملة فهو بلياتشو عبيط وليس حتى صاحب فكر فهو يمنع

عنهم أموراً لا تعنيهم ولا تضرهم فى شئ؛ ولقد أخبرنى أحدهم أنه قد أبتاع هنا هاتفاً محمولاً ثم حذف نظام تحديد الموقع منه عمداً وفقاً للنظام المصرى المتخلف فما كان منه إلا أن أوصل الهاتف بجهاز الكمبيوتر الخاص به وأزال برنامجه كله ثم أعاد تحميل البرنامج فى موقع الشركة على الانترنت فاستعاد هاتفه الخاصية فى ست دقائق فحسب .... وطظ فى البلياتشو ...

والشباب كلهم يعرفون هذه الحقيقة ويستخدمون اللعبة فى يسر و سهولة وبساطة فالأمن يمنع وهم يحصلون على ما يمنعه وتمضى اللعبة وفى البلاد المتحضرة التى يركب كل شخص فيها سيارة تحوى جهاز تحديد الموقع ويحمل هاتفاً به النظام نفسه أدرك الأمن أنه من العبط أن يقف فى وجه التكنولوجيا فترك الناس تتطوَّر وتتقدم وانشغل هو بتطوير نفسه والتفوق على هؤلاء الناس ...

أما هنا فالأمن ليس لديه الوقت لهذا ولا الرغبة أيضاً لأن مهمة الأمن هنا هى حماية النظام.... والنظام فحسب لهذا فهو لا يبالى بالمواطنين ولا تطوَّرهم ... ولا حتى أمنهم ...

إنه فقط يلعب دوره باقتدار ... دور البلياتشو ... مضحك الملك ... الذى لا يهتم حتى برجال البلاط فقط الملك ...

لأنه بلياتشو ...

* * *

شباب مصرى يحب مصر خرج فى أحد الأعياد إلى أحد الشواطئ؛ وغلبه الحماس أيا كانت دوافعه فوقف يغنى

لمصر ... لبلدنا ... للوطن الذى نحيا فيه وعليه ... لمصر التى يفترض أنها فى خاطرى وفى دمى وفى دمنا جميعاً ولكن الأمن لا يؤمن بهذا .. وربما لا يؤمن حتى بأن مصر فى خاطره ودمه هو أيضاً ... ربما لأنه ليس عنده دم ...

ولأن الأمن ... سي السيد ... الفتوة ... البلطجى رجل اللا قانون فقد اعتقل هؤلاء الشباب ... فقط لأنهم يغنون لمصر .. ولأنه لا يفهم لماذا يفعلون هذا .. هو لسة فيه حد بيحب مصر بعد إللى الأمن عامله فيها ؟!..

وشباب مصر كلهم لا يفهمون لماذا فعل الأمن هذا ولا لماذا اعتقل أولئك الشباب ولا حتى ما الدروس المستفادة من هذا ؟!..

هل يعلمهم الأمن ألا يغنوا لمصر ؟!..

هل يعلمهم أن حب مصر جريمة تستوجب الاعتقال والعقاب ؟!...

هل يدفعهم دفعاً إلى عدم الانتماء ثم يحاسبهم بعدها لو أنهم خانوا نفس الوطن الذى اعتقلهم لأنهم يغنون له ؟!..

وماذا لو أن الشباب وقفوا يوماً يغنون للرئيس بوش بعلو حسهم ورفعوا العلم الأمريكى على شاطئ مصرى ؟!..

هل كان الأمن سيجرؤ على اعتقالهم ومحاسبتهم عندئذ ....

بل وماذا لو ذهب كل الشباب الذين يعترضون على ما حدث فوقفوا فى ميدان التحرير وعطلوا المرور وسدوا الشوارع وراحوا يغنون بصوت جهورى لبابا حسنى ... هل سيعتقلهم الأمن عندئذ ؟!...

أم أن الغناء لمصر جريمة لم يفزع لها رجال النظام فى مجلس الحكومة بعد ؟!...

أقصد فى مجلس الشعب ... شعب أمبوزيا الشقيق ؟!...

المشكلة أن الأمن لم يفهم وخاف وأصابته عقدة الاضطهاد وتصور أنه سيعاقب من رؤسائه إن لم يتخذ موقفاً ... فاتخذه ... وبس ... ومش مهم مصر ولا شعب مصر ولا شباب مصر ... المهم النظام ... هو النظام إيه بالضبط ... اللّه أعلم.

* * *

شخص مخبول كما وصفته بيانات الداخلية الرسمية حاول اغتيال رئيس الجمهورية فى بورسعيد وفشلت المحاولة ولكن الامن عاقب مدينة بورسعيد كلها فكسدت الأسواق وبارت سلـعها وفسدت تجارتها وأفلس تجارها وشحت شعبها ...

ولكن هذا لا يهم ... المهم أن يدرك الرئيس أن كل شئ تمام وأن الأمن شايف شغله مية مية ومسيطر على المسائل وكله تمام يا فندم ... وليس من المهم أن يتأثر الدخل القومى أو يجوع الناس أو تبور التجارة المهم الاستعراض الأمنى المضبوط ...

وفى سيناء قام بعض الغاضبين بعدد من التفجيرات راح ضحيتها بعض السواح فضرب الأمن نطاقاً أمنياً على سيناء كلها من أقصاها إلى أقصاها ومن شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها وجعل حياة سكانها جحيماً ثم نفخ أوداجه على الرغم من المصيبة التى فعلها

بثلث شعب مصر وقال : كله تمام يا فندم ... الأمن مستتب ...

ولست أدرى ما إذا كانت العبارة صحيحة أم لا ولكننى أعتقد أنه كان يقصد فى قراره نفسه أن الأمن مستبد ولكنه خطأ فى النطق فحسب ربما لأن الأمن ألدغ فى ثمانية وعشرين حرفاً لذا فهو يتحدث بلغة لا يفهمها عامة الناس ... ولا حتى النظام نفسه ...

والأمن لأنه خريج شرطة فهو لا يعلم الكثير عن الجغرافيا التى تقول أن سيناء هى ثلث مصر وان شعبها جزء من الشعب المصرى وانه فعلياً حامى حدود مصر الشرقية وأنه " وهذا هو الخطر " اذا ما انقلب فربما تنقلب معه الدنيا كلها ...

ثم إنه وعندما يفيض به الحال قد يسعى لاستفزاز إسرائيل عبر حدودها فتعبر الحدود لمعاقبته وتنتهك بهذا حدود مصر وتكون فضيحة للأمن وللنظام كله ولو أن هذا لا يهم فكلاهما متخم بالفضائح ولن يتأثر كثيراً بفضيحة جديدة ...

* * *

صحيفة نيويورك تايمز الشهيرة أفردت فى أول أيام عيد الأضحى نصف صفحة كاملة للسخرية من نظام الأمن المصرى الذى يمنع نظام تحديد الموقع دون أى سبب علمى أو منطقى أو حتى أمنى وتقول الصحيفة و" العهدة عليها " اننا الدولة الوحيدة فى العالم " بما فى ذلك الدول المغرقة فى الديكتاتورية الصريحة " التى تمنع استخدام وبيع هذا

النظام الذى صار أحد النظم التقليدية فى كل سيارة حديثة ...

والمقال لم يدهشنى فى الواقع لأننى أعرف تركيبة الأمن فى بلدنا جيداً وأعرف لماذا يعتبر أن المنع هو سنة الحياة ولماذا يصدر قرارات المنع عمال على بطال لكل ما يجهله أو يعجز عن فهمه بعقليته التى مازالت تعيش فى زمن الستينيات ...

والتركيبة الأمنية فى ظل النظام الحالى بسيطة للغاية فضباط ومسئولو الأمن مثلهم مثل أى موظف حكومى لا يريدون أن يعملوا أو يبذلوا أدنى جهد لمتابعة الأمن علمياً وعلى نحو صحيح تلتزم عملاً بحق وحقيق وهذا ما يرفضه كبارهم من باب الانتخة بالشئ ومن باب أن اللى يلاقى الدلع ومايتدلعش يبقى حرام عليه لذا فبدلاً من أن يتعب رجال الأمن أنفسهم بالعمل فالأسهل اتباع سياسة اللى يجيلك منه الريح سده واستريح ...

ثم انه لا توجد للمواطن فى ظل النظام الحكيم أى حقوق فهناك ارهاب وكباب وتآمر على نظام الحكم واخوان وكنتاكى وويمبى وبيتزا هت وكلها عوامل خطيرة أمنياً : كما يفهمون النظام الحكيم " ولابد من منع الهواء والماء عن كل مواطن فى البلد لأن البلد كله يكره النظام ويسعى لإسقاطه ....

ثم أن الأمن متأخر علمياً وسياسياً وحتى أمنياً لذا فالمعادلة تصبح سهلة للغاية ...

انتخة + انعدام حقوق + سلطة مطلقة +جهل = منع ... منع .... منع ... منع ...

* * *

أخبرونى باللّه عليكم لماذا يكون وزير الداخلية دوماً من رجال الشرطة الكبار ؟!...

فى البلاد الديموقراطية الحقيقية يكون رئيس الشرطة ومسئول الأمن الداخلى رجل مخابرات سابق أو سياسياً مدنياً باعتبار أنه من الضرورى أن يكون مسئول الأمن الرئيسى سياسياً ذكياً على علم بعجلة التطوّر ومدرك للتداعيات السياسية لأى تحرك أمنى وليس رجل شرطة اعتاد بحكم عمله على عبارة واحدة ...

كله تمام يا فندم ...

فعندما يكون مسئول الأمن رجل أمن فهو يسعى فقط لتنفيذ كل ما يأتيه من أوامر دون إعمال عقله لحظة واحدة اللهم إلا للبحث عن وسائل مختلفة لمنع كل مالا يفهم بدلاً من أن يبذل جهداً ولو ضئيلاً لفهمه خاصة لو كان فى بلد انعدمت فيه الحرية وانشغل فيه النظام بالحفاظ على شعبه ...

أما لو كان مسئول الأمن سياسياً أو مدنياً فهو يدرس كل شئ على نحو مختلف ويحاول أن يواكب التطوّر حتى لا يبدو عبيطاً وأهبل وبريالة أمام الشعب أو الشعوب الأخرى ولا يمكنه لو كان فى نظام ديموقراطى أن يصدر أى قرار يتعارض مع حرية المواطن إلا لو كان حتمياً بالفعل ..

وكل هذا لا يحدث إلا فى البلاد الديموقراطية بحق وحقيق والتى لها أحزاب حقيقية تتداول السلطة فيما بينها وكل مسئول أمنى فى كل نظام يأتى ويعلم أنه سيترك منصبه حتماً لو أساء لحريات الشعب أو حجر عليها لأسباب أمنية دون داع وإلا لأنقلب عليه الشعب وعلى النظام الذى وضعه فى منصبه ولخسر هذا المنصب هو وحزبه والنظام كله ...

ولكن هنا لدينا أمن قوى علينا .... وفى الخطوب نعامة ....

(بروس شناير) خبير أمنى عالمى وواحد من خبراء الامن المعدودين الذين استعان بهم البيت الابيض نفسه يوماً وهو رئيس الأمن الحالى فى واحدة من كبرى الشركات فى العالم وله كتاب شهير حول المسألة الأمنية يبرر بها كل ما نراه حولنا من تصرفات أمنية حمقاء ومتعنتة ومتخلفة علمياً وعملياً وأمنياً ...

فشناير يرى أن كل ما يفعله الأمن فى كل الدول وبالذات ذات النظم الديكتاتورية منها هو فى واقعه مجرد استعراض أمنى أو مسرح أمنى كما يسميه ليس الهدف منه هو الحفاظ على الأمن فعلياً بقدر ما هو إيهام الكبار بأنه يعمل ويجتهد ويحافظ على أمنهم وسلطاتهم التى ساعدهم على انتزاعها والاستيلاء عليها دون أى سند شعبى فعلى ... والأمن عندما يستعرض قوته فهو يوصل بهذا رسالة مزدوجة لكل من الشعب والسلطة فى آن واحد فهو يبرز عضلاته أمام الشعب ليوهمه بأنه قوى و

يحصى أنفاسه و يسيطر على مقاديره ويمتلك القدرة على التحكم حتى فى أفكاره وأدق خصوصياته ...

والدليل على هذا أنه يوجه قوته كلها للمواطنين المسالمين العاديين الذين يسيرون جنب الحيط أما عندما يواجه عملاً فعلياً يحتاج إلى أمن حقيقى فهو يحتاس ويندس ويلفق أى تهمة لأى شخص حتى لا يتهم بالخيبة والتقصير والفشل وحتى يمكنه أن يقول لذوى السلطة الأعلى كله تمام يا فندم .... وليس المهم بعدها أن تضيع الحقيقة أو تموت أو يذهب الحق والعدل والحرية إلى الجحيم الذى سيذهب هو إليه إن شاء اللّه ...

وهو يفرد عضلاته أمام السلطة أيضاً ليثبت لها أنه قادر على حمايتها والحفاظ عليها والمساعدة على بقائها وكتمانها على أنفاس الناس لأطول فترة ممكنة ...

ولكن التاريخ يؤكد لنا أن كل هذا الهبل الأمنى لابد أن يؤدى بالنظام والسلطة إلى كارثة ....

* * *

فى ايران وحتى السبعينيات كان نظام الشاه يعتمد اعتماداً مطلقاً على الامن للسيطرة على شعبه ومنع حدوث أى انقلاب على نظامه ولكن هذا لم يمنع الشعب من الثورة بل كان أحد العوامل الرئيسية لقيامها وانتصر الشعب على الامن وأسقط النظام وسقط الشاه وفقد كل شئ ... ولم يتعلم أحد .

وفى سوريا ظل الأمن سنوات يقايض الناس على حرياتهم ويوهمهم بأن تعنته وجبروته الهدف منه حماية الناس

ولكن النظام كله مع الدولة كلها سقطا بسبب جبروت الامن وتعنته .... وأيضاً لم يتعلم أحد .

وفى العراق كان الأمن أشبه بوحوش شرسة مسعورة تعقر كل من يشتبه حتى فى رفضه للنظام وبلغ التعنت والمنع أقصاهما ولكن كل هذا لم يؤد إلا إلى شعب ناقم رقص فرحاً لسقوط النظام على الرغم من أن بلده يحتل ... وحتى مع هذا لم يتعلم أحد ...

والأمن العنيف الشرس المتخلف هو أحد النقاط الأساسية فى سقوط الانظمة على اختلاف أنواعها وأحد أهم الأشياء التى تترك بصمة سوداء فى مجرى التاريخ والأمن لازم وضرورى ومهم ولكن حرية الناس وحقوقهم أكثر لزوماً وضرورية وأهمية لأن الحرية هى الأمن الحقيقى الذى لا يمكن أن يسقطه أى شئ فى الوجود ...

وهذا العصر تميز بتقوية شوكة الامن وإطلاقه مسعوراً بلا حدود فى وجه الشعب والناس والمجتمع .

وهنيئاً لك أيها النظام بتلك الدولة البوليسية ضمنت أن يكون لك مكاناً فى التاريخ الذى ستدخله من أوسع أبوابه .... أمنياً .

* * *

ما من شخص واحد عاقل في الكون كله يستطيع أن يزعم أن هناك أية دولة في العالم لا تحتاج إلي أمن قوي يحميها وكل واحد منا لا يمكن أن يشعر بالأمن والأمان في غياب أجهزة أمنه ....

المشكلة إذن لا تكمن في وجود الأمن ولا في قوته ولكن في عقله وعلمه ونباهته فهناك دبة أرادت أن تزود عن صاحبها وتحميه ولكن ولأنها تتصرف بقوة باطشة دون عقل أو علم أو معرفة فقد قتلته بهدف حمايته وهذا ما يفعله أمننا العظيم ... يقتل النظام ويدمره ويزرع كراهيته في قلوب الناس ويجعل كل مواطن يتمنى الخلاص منه وكل هذا بحجة حمايته وخدمته ...

والمفترض في الشرطة أنها في خدمة الشعب ولكن أحد عباقرتها غير ذلك الشعار الجميل الذي كان يربط الشعب بالشرطة بشعار آخر ديكتاتوري النزعة يقول : إن الشعب والشرطة في خدمة الدولة. والناس كلها طبعاً تعرف أن هذا يعني في خدمة النظام ... والنظام وحده ..

وهناك دول تعتمد هذا المبدأ أو اعتمدته لسنوات طوال قبل أن تنهار نظم الحكم فيها وتفشل وربما يحاكم أصحابها ويعدمون وسط فرحة وتهليل الشعب الذي حكموه أمنياً بالحديد والنار ... ويومها لم تحمهم الدبة التي قتلت صاحبها ...

الأمن إذن ضروري وهام وخطير جداً وهو ليس أمن رجل الشرطة الفتوة الذي تواجهه جريمة فيكتفي بجلب ذوي السوابق أو المشتبه منهم وتعليقهم وتعذيبهم حتى موت بعضهم دون أن يبذل جهداً لتنفيذ ما تعلمه عن أصول البحث والتنفيذ وتتبع الادلة والوصول إلى الحقيقة ولو حتى ليرضي ضميره الله يرحمه وإنما هو العاقل الذكي

الذي يتابع التطور ويراعي الحقوق ويهم بالدرجة الأولى أن يصل إلى الحقيقة حتى يسود أمن حقيقي ...
وهذا الأمن بالطبع خيال علمي .. مش كده ولا إيه ؟!

* * *

التخلف الذي يتعامل به الامن داخل الحدود التي لا يمكن أن يكون غضنفراً إلا فيها انتقل كالعدوى إلى أمن الأماكن الخاصة أيضاً ربما لأنهم يسندون مهمة الأمن فيها لرجال أمن سابقين نشأوا وتربوا في أحضان الديكتاتورية وسياسة المنع ونظرية الباب إللي يجيلك منه الريح سده واستريح بدل ما تشتغل وتتعب ومش مهم يقولوا عليك بريالة مادامت في يدك سلطة . . .

ففي مدينة جديدة تملأ إعلاناتها شاشات العرض ليل نهار على الرغم من إنهيار أسهم شركتها ومنع نشر أخبار عن رئيس مجلس إدارتها السابق فوجئت بأحد رجال أمنها يمنع التصوير الضوئي داخلها بحجة أن هذه تعليمات الإدارة التي لم تدرك بعد من برجها العالي أن كل عيل أصبح يحمل آلة تصوير رقمية في هاتفه المحمول على الأقل وأن آلات التصوير نفسها تطورت بشدة حتى يصعب كشفها والاهم أن مسئول أمنها لم يدرك أننا في القرن الحادي والعشرين وأنه لا مبرر مطلقاً لمنع التصوير في منطقة غير عسكرية إلا إذا كانت فيها بلاوي يريد أن يخفيها وليس لديه الذكاء الكافي حتى ليخفيها ..
أو أنه يعمل بنظرية أمنية قفلية مصدية تقول : انت معاك ...... تبقى أنت داسوس .. صح يا بوي؟؟.

أو ربما يتصور أن سكان ومالكي وحدات المدينة الجديدة واللذين دفعوا الألوف وربما الملايين ليقيموا فيها هم أسرى عنده أو عبيد إحسانات جنابه هو وسادته اللذين بنوا المدينة وباعوها ومازالوا يتصورون أنهم ملاكها .. أو أنها عقدة الأمن .... لابد وأن تخضع .. وتمنع وتمنع .. لنثبت للكل أننا هنا..

يا أخي باشا فكر بقي شوية ... واعقل .. جرستنا وضحكت الدنيا عليك وعلينا وعالنظام كله .. لايمها بقي كسفتنا .. الله يكسفك .

* * *

مصادفة جمعنا لقاء برجل أمن سابق يتابع هذه السلسلة من المقالات ولقد أخبرني أن كل ما أكتبه هو الساذج بالضبط لأنني لا اعمل بالأمن ولا أفهم فيه وراح يلقي على مسامعي محاضرة طويلة حول ضرورات الأمن وحتميات الأمن وخطورة الأوضاع في المنطقة وعن الجماعات الإسلامية والإرهاب والإخوان المسلمين والقوى المناهضة لنظام الحكم وكل (......) إياها التي يرددها رجال الأمن كالببغاوات دون خلفية ثقافية تجعلهم حتى يفهمون أبعاد ما يقولونه ...

حديثه ذكرني بالتصريحات السوفيتية العظيمة التي كان يرددها رجال الأمن في زمن ستالين الذي قاد مع الوقت إلى إنهيار الاتحاد السوفيتي كله وضياع من كان الأمن يؤكد بمحاضراته السخنة وأفعاله المزريه أنه يحميهم .

والواقع أنني لم أناقش رجل الأمن السابق ولم أجادله ولم أحاول حتى أن أشرح له مدى فساد منطقه واكتفيت بالصمت وهز الرأس مع ابتسامة خفيفة حتى انتهي من محاضراته الطويلة ثم قلت له عبارة قصيرة أقولها لكل مسئول أمن في مصر ..

على فكرة ... البلاد الأخرى عندها أمن أيضاً ...

وتعمل جاهدة للحفاظ عليه ..

وتحمي حقوق المواطنين وحريتهم في الوقت ذاته ..

وبالمناسبة كلها دول قوية ...وأقوى مننا كمان ..

والأمن لديها يعمل بالمخ وليس بالمهلبية . .

وسلم لى على المهلبية ... يا أمن

* * *

أمنك ياريس ...

الرسالة هذه المرة إليك سيادة الرئيس .... الكل حذّرنى من إرسالها والكل أكّد أنها أبداً لن تمر مرور الكرام والغالبية العظمى تطلّعت إلىّ فى حسرة باعتبار أننى ألقى بنفسى بها فى التهلكة ولكن المدهش أن كل مافعلوه هذا هو ماجعلنى أرى ضرورة أن أكتبها إليك؛ فهى فى الواقع صورة لأمنك أنقلها إليك من عيون غير أمنية ومن خلال رؤية مواطن يرى ضرورة احترامك؛ لأنك تمثّل وطنه ولا يرى أنه مضطر للخوف منك والرعب من أمنك الذى تجاوز فى عهدك كل الحدود؛ لأنه هناك قاعدة هامة جداً تنطبق عليك كما تنطبق على أى شئ آخر فى الوجود ....
أن الحب والخوف أبداً لا يجتمعان ....
هذا يعنى باختصار أنه إما أن نحبك ونحترمك أونخاف منك ونخشاك ونبغض أمنك الذى حوّل حياتنا إلى جحيم فى عصر سينسب إليك بحلوه ومره وفساده وإنجازاته وقهره ومذلته .....
والواقع أنك لو راجعت مواقف الناس معك فى لحظة صفاء بعيداً عن وسوسة رجال أمنك؛ لوجدت أن هذا الشعب البسيط يحترمك بحق كإنسان بدليل أنه يهتف لك فى الشوارع إذا مالاح له وجهك والشعوب لا تهتف لحاكمها بالقوة فكل ماتستطيعه القوة هو أن تقنعهم بألا يهاجموه أو تجبرهم على هذا ولكن الهتاف من شعب كهذا لا يأتى إلا من القلب ....

ولكن رجال أمنك يرسلون إليك وإلينا صورة مختلفة تماماً ....

إنهم يحيطونك بحراسة لا يحاط بها إلا الحكام الطغاة وحدهم ويوهمونك أن هذا يحميك من شعبك باعتباره شعباً عدواً أو باعتبار أنك حاكم ظالم جبّار يحكم شعباً قهراً وطغياناً ولابد من حمايته من أذاهم وظلمهم وقهرهم .... ويضربون لك الأمثال بحكام دول أخرى أدانهم العالم كله بالطغيان وحكموا شعوبهم كقوة احتلال غاشمة وكأن أمنك يخبرك أنه يراك فى هذه الصورة ... حاكماً جبّاراً طاغية يسعى كل شعبه لاغتياله على الرغم من أنه لو كنت كذلك بالفعل فلماذا تبقى لتحكم شعباً يبغضك ؟!....

أمنك إذن يسئ إليك ويشوّه صورتك فى عيون شعبك ياريس ويتجبّر على رعيتك فى زمنك ويتجاوز القانون فيبدو وكأنه ينفذ أوامرك ثم شئت أم أبيت سينسب التاريخ كل هذا إليك وإلى زمنك وعصرك ونظام حكمك ومهما كانت لك من انجازات فهذا فقط ماسينسبه إليك التاريخ فيما بعد .... وإن لم يكن التاريخ يهمك فماذا عن الحساب ؟!..

فعندما تلتقى بخالقك مثلما حدث ويحدث وسيحدث لكل مخلوق حتى منذ الخليقة إلى القيامة لن يكون هناك أمن يحرسك ولا موكب يتقدّمك ولا قوات أمن تحيط بك ولن تخشاك الملائكة أو يهتف لك الموتى .... ستكون عندئذ مجرّد بشر يحاسب على أعماله وما اقترفت يداه وعلى كل شخص سعد بأعماله أو أضير بأوامره أو تعذّب بسكوته

الذى هو فى عرف أمنك علامة الرضى على أفعاله وتجاوزاته وقهره لحرية الوطن والمواطن ....

أمنك الوحيد عندئذ سيكون فى حسن عملك فى الدنيا ....

فهل أنت مطمئن ومستعد ليوم حسابك الذى سيأتى دون أن يستطيع أو يفكّر رجال أمنك البواسل فى منعه: لأنهم سيكونون منشغولين بتقبيل أقدام من أذوهم فى الدنيا أملاً فى أن يرحموهم بعفوهم من عذاب سيتمنون معه الموت ألف ألف ألف مرة ولن يحظوا به بعد أن أضاعوا فرصتهم فى الدنيا بجبروت أقنعوا أنفسهم أنه واجب يؤدونه .....

وربما لا ترى ماتراه الدنيا كلها بأن مايحدث من قهر لمواطنيك هو أمر غير دينى وغير إنسانى وغير قانونى دولياً وأنه أمن قومى لابد من الحفاظ عليه كما يردّد رجال أمنك وكما نجحوا فى إقناعك ولكن سل نفسك: هل الدول الديمقراطية التى تضع حرية المواطن فوق الأمن لا تستطيع حماية أمنها القومى ؟!....

الواقع ياريس أنها مسألة توازن يجيدها الأمن القوى ويغضب منها الأمن الضعيف ولو أنك تحتاج إلى أمن يحميك فأنت تحتاج بالضرورة إلى أمن قوى يعرف كيف يوازن بين الحماية والحرية وليس أمناً ضعيفاً يقهر الشعب كله ويجلب لك كراهيته ومقته ودعواته التى ستصنع فارقاً كبيراً يوم الحساب العظيم بحجة حمايتك !!....

معذرة ياريس ولكن شعبك هو سندك وقوتك وليس عدوّك ومصدر التهديد لك وأمنك يهدّد صورتك وسمعتك محلياً

وعالمياً وعليك أن تختار وستتحمّل أمام الشعب والتاريخ واللّه سبحانه وتعالى نتيجة هذا الاختيار ...

شعبك ... أو أمنك ..... ياريس.

*   *   *

أمنك يا ريس يريد أن يثبت لك وليس لسواك أنه يحميك ولهذا فهو يقوم باستعراض أمنى رهيب كلما رحت أو غدوت لأنه امن جائر فهو يجور على مصر كلها من أجل أن يعطيك الشعور بأنه يحميك فيغلق الطرقات ويمنع المرور ويحتل الشرفات ويهدِّد المواطنين ويروِّع الآمنين ....

وتعبر أنت بسيارتك وتحمل الوزر كله باعتبارك المسئول عنهم وعنا ثم لا يحدث شئ ولن يحدث شيئاً أيضاً لو أنهم تصرَّفوا كمن يعرف واجبه الحقيقى أو حتى يحاولون تقليد الأمن الأمريكى الذى يحمى رئيس أكبر دولة فى العالم ويجيد حراسته وحمايته دون أن يغضب فرداً واحداً من الشعب الذى يحترم رئيسه ويحبه؛ لأنه يضع حريات شعبه فوق أمنه ويحرص على راحة الشعب الذى انتخبه انتخاباً حقيقياً والذى لن يسمح لا للأمن ولا حتى للرئيس نفسه بانتزاع حقوقه التى كفلها له القانون الدولى وميثاق حريات الإنسان والدين أيضاً ..

ولا تقل لنا أن هذا لا يحدث أرجوك. فكل ما سيعطيه قولك لنا من انطباع هو انك غافل عما يدور فى وطن تحكمه وبين شعب تقوده ولا تلعب معنا - أرجوك مرة أخرى - لعبة الديموقراطية التى يلعبونها دوماً على الشعوب المقهورة

التى يريدون تسييسها وفق هواهم فلا الشعب يصدقها ولا رجال أمنك يصدقونها ولا كبار مسؤليك ولا حتى وزراؤك !!

بل إننا نعتقد أحياناً ما يفعله بنا أمنك أنك أنت نفسك لا تصدِّقها فلو أن البلاد تدار بديموقراطية حقيقية فلماذا كل هذا الهيلمان ولماذا كل هذه العصبية ولماذا هذا التحوَّل الكامل إلى دولة بوليسية ؟!.....

والمشكلة لا تكمن فى الواقع فى رجال أمنك ولا حتى فى وزير داخليتك ولا فى القانون .... إنها تكمن فى الحقيقة فيك أنت : فأصغر عيل فى مصر يعرف أنك لو قلت لا فلن يجرؤ مخلوق واحد على المساس بأصغر وأحقر مواطن فى دولتك .. ولكنك لم تقلها .. ولم تشر حتى إليها وهذه بالنسبة لأمنك هى الإشارة الخضراء ... و اسمح لى !!

*   *   *

تعال نتفق يا ريس على أن أمنك يحميك منا على الرغم من أن هذا مستحيل كما أكَّد لنا التاريخ فى كل صفحاته فعندما تبلغ الأمور ذروتها وهى على وشك هذا . ويهب الشعب غاضباً فما من قوة وما من اجهزة أمن مهما بلغت قسوتها وبلغ جبروتها نجحت يوماً فى الوقوف فى وجه طوفان الشعب إذا ثار ...

وعلى العكس تماماً . فإذا ما أحبك الشعب فسيقف بطوفانه كله فى وجه أعتى الأجهزة الأمنية لحمايتك ... وربما

لهذا تصنع أجهزة أمنك عازلاً قوياً بينك وبين شعبك : لأنك لو أختلطت بهذا الشعب حتى المتطرفين منه فنظرتك إليه ستتغيَّر حتماً ولن تصدَّق بعدها ما يدعيه أمنك من أن الأمة كلها تتربَّص بك وتستهدفك وربما أيضاً تتغيَّر سياستك الأمنية كثيراً ....

هل تعتقد يا ريس أن أمنك هو الذى جعل الشعب كله يقف خلفك عندما لاقى حفيدك العزيز أسكنه اللّه سبحانه وتعالى فسيح جنات ربه وربنا ؟!.... كلا يا ريس .... الشعب كله خرج خلفك من أجلك ..... ومن أجله ...

الصحف كلها . حتى أشد المعارضة منها لم تكتب كلمة واحدة سيئة عما حدث وكل الشعب من أقصاه إلى أقصاه احترم حزنك . وشاركك إياه ودعا لك ولأسرتك بالصبر والسلوان .... دعا من أعمق أعماق قلبه ....

ولكن الفكر الأمنى يستحيل أن يرى هذا : فرجال الأمن مدربون دوماً .على رؤية الأخطاء وحدها فهم لا يكافئون المحترمين فى الشوارع ولكن يلقون القبض على المخطئين فحسب ....

ومسألة قيامهم بواجبهم تجاه الشارع تستحق منا ومنك وقفة صريحة واضحة بلا مجاملة أو مواربة لأن أمنك يا ريس باختصار شديد يهمل تماماً أمن شعبك بل هو شوكة فى ظهر هذا الشعب المسكين ....

* * *

سيادة الريس هل ترى أن أمنك يجيد عمله ويؤديه بأمانة وضمير ؟! ... لو أنك ترى هذا - فاسمح لنا كشعب - أن

تختلف معك لأن مهمة أمنك ليست فقط أن يحمى حياتك وحياة عائلتك ولكن الأهم أن يحمى سمعتك وشرف منصبك أمام شعبك أوّلاً وأمام العالم كله ثانية ..... وعند هذه العبارة وحدها نحتاج لأن نتوقّف كثيراً!!

اطلب من أحد رجال مخابراتك باريس وهم تابعون لك دون سواك أن يصطحب عائلته كمواطن عادى ويذهب لزيارة أية منطقة تضم آثار بلده لينقل لك بنفسه مدى المهانة التى يتعرّض لها أى مصرى من رعاياك إذا ما أراد زيارة ورؤية آثار بلده أو أراد أن يشرح تاريخها لأولاده على الطبيعة ودعه ينقل إليك فى الوقت ذاته كيف يعامل أى أجنبى بكل الرعاية والاحترام كما لو أننا فى عهدك باريس قد وقعنا مرة أخرى تحت احتلال غاشم من دولة تبغضنا وتسلط أمنها علينا وتتعمّد بكل الطرق إهانتنا وذلنا حتى نتعلّم أننا فى عهدك مقهورون ومهانون وأذلّة .

ارسل أحد رجال مخابراتك: ليأتيك بالخبر اليقين ولا تعتمد فى هذا على تقارير الأمن نفسه وإلا كنت كمن طلب من زعيم الذئاب أن يأتيه بتقرير عن أمن الحملان الذين وضعهم تحت عينه و(حمايته) .... ارسله وسيخبرك أن السائحين أنفسهم على الرغم من كل مايلاقونه من (دلع مرق) يستنكرون مايحدث بشدة ويلتقطون الصور والأفلام له ليشرحوا لشعوبهم كيف يعان المصريون فى مصر ... فى عهدك !!

أماكن كثيرة تحتاج إلى أن ترسل من يأتيك بأحوالها وأخبارها مادام أمنك قد عزلك عنا فلم تعد ترانا إلا من خلال المنظار

شديد السواد الذى ألبسك إياه والذى أعمى عينيك به عنا حتى أنك وفى أحاديثك الرسمية المسجّلة كشفت لنا أن الأمن لا يطلعك على ماتكتبه صحف المعارضة فى عصرك وإنما اكتفى بأنها (صحف صفراء) كما أسماها باعتباره أمن فوشيا والأصفر (ياي) بلدى قوى !!

ولعبة التسميات هذه سخيفة وتافهة وتعكس هيافة وخيابة من ابتكرها وتصوّر بهبله أن الشعب متخلف وفاقد الأهلية وأن تسمية جماعة الإخوان المسلمين بالمحظورة سيلغى تواجدها وانتشارها بين الناس أو سينسيهم حتى إسمها وربما يحدث هذا بعد مائة سنة ولكنه لن يتمكن من معرفة هذا بنفسه لأنه لا توجد خدمة توصيل صحف فى أعماق الجحيم ربما لأنها تحترق كما سيحترق هو قبل الوصول إلى الجحيم بمليار كيلومتر على الأقل من شدة حرارتها التى ربما يقلّب سيخه فوقها واحد من (المحظورة) إياها هذا فى علم الخالق عزّ وجلّ ولكن الذى فى علمنا نحن هو أن الشعب الذى تصوّر سيادته بجلالة هبله أنه سيضحك عليه ضحك على خيابته بالفعل وأطلق على وزارة الداخلية اسم (المدعوقة) وأهو من محظورة لمدعوقة ياقلبى لا تحزن !!

ارسل عيناً لك وسط شعبك باريس: لترى ماذا يفعل به أمنك وكيف يهينه فى كل مناسبة وبديمقراطية شديدة فهو يهين الكل بلا استثناء فيما عدا فئة السادة كبار رجال الاحتلال وأعوانهم بالطبع من رجال مجلسى الشعب والشورى ورجال الأعمال وكبار رجال حزب الاحتلال الوطنى

وكل من يمت لهم بصلة حتى أن إحدى مديريات وزارة الصحة القريبة منك قد انقلبت كلها لحدوث حالة وفاة عند طباخ الريس !!!

دع عينك تروى لك مايفعله رجال أمنك فى أكمنة الطريق التى يعتبرها العالم كله دليل بوليسية وديكتاتورية الدولة والتى لا وجود لها (إلا فى الطوارئ القصوى) فى أية دولة تحاول حتى التظاهر بلمحة من الديمقراطية ....

دع عيونك تنقل لك كيف تدار الانتخابات فى عصرك أنت وكيف تتحوّل أجهزة أمنك فيها إلى مافيا إرهاب تهدّد من لا ينتمون لحزبك وتحول بينهم أحياناً وبين الوصول لصناديق الانتخاب؛ لأنهم لو وصلوا لن ترضيك النتيجة أبداً وربما لن تأتى لصالحك أيضاً لأن أمنك بعبقريته جعل عصرك مثالاً للديكتاتورية والقهر وما من مخلوق فى أى مكان فى الكون يمكن أن ينتخب عن رضى رمز قهره وذله وعبوديته ....

أمنك باريس ضدك على طول الخط وهو الدليل العملى والمباشر والذى يصل إلى كل عيل فى كل حارة فى كل مصر على أن عهدك هو عهد طغيان وجبروت مهما قلت أنت وفعلت فمن سمع ليس كمن رأى وشعر وأهين وتعذّب وقاسى وعانى على يد من وضعهم الخالق عزّ وجلّ فى مقاعدهم ليحمون الناس فكفروا بنعمته وتكبروا وتجبّروا وطغوا ثم يؤدون الصلاة فى آخر اليوم متصورين أن هذا سيغفر لهم مافعلوه وأن الشعب سيظلم مرتين فى الدنيا والآخرة وسيضيع حقه منهم عند رئيسهم وعند خالقهم أيضاً !!

هم نماردة نسيوا ما أمرهم به ربهم أمام ما أمرهم به طغاة عصرك ومامن جبار أقوى من الخالق جلّ جلاله وهذا ماسيكشفونه بأنفسهم عندما يلتقون به أذلة ولكن هذه ليست قضيتنا فى الدنيا؛ لأنهم سيستغلون كلماتى ليوهموك أو يوهموا رؤسائهم بأننى من (المحظورة) التى هى الإخوان المسلمين ألا أونه ... الإخوان المسلمين ألا دوا .... الإخوان المسلمين ألا تريا ... (واخد بالك انت يا أهبل أفندى ... مانسيناش ... يابتاع المدعوقة) ....

باختصار ياريس أمنك غير أمين لا على عمله ولا على واجبه ولا على شعبك ولا على سمعتك فكيف تتوقّع منه أن يكون أميناً على حياتك؟! إنه ياريس وهذه كلمة للتاريخ سيكون بتجاوزاته السبب الرئيسى لأية موجة ضدك وضد عصرك وحكمك وسياستك؛ فالأمن هو العنوان الحقيقى لنظام الحكم وهو مرآة الدولة ... والمرآة متسخة للغاية ياسيادة الريس ونحتاج منك لأنك رئيسنا والمسئول عن أن تمسح عنها كل من يسئ إليها وإلينا ... وإليك ... ياريس.

* * *

الانتخابات الرياسية قادمة يا ريس وأمنك – بلا أدنى شك – يخطط الآن لكيفية السيطرة عليها والسيطرة على كل من يجرؤ على ترشيح نفسه أمامه فيها ويدرس أساليب تزييف إدارة الناخبين وتزوير الانتخابات لصالحك .. أنت فقط!!

هذا لأن أمنك نفسه لا يرى انك تمتلك الشعبية الكافية لتنجح على نحو طبيعى وبأصوات ناخبين حقيقية ولا بإرادة شعبية فعلية ...

أمنك يا ريس هو أكثر من لا يثق فيك ...

فهل تثق أنت فيه ؟!!

امنك يا ريس هو السبب الرئيسى لانعدام فرصتك فى انتخابات فعلية حقيقية تحت إشراف قانونى صحيح ... هو السبب لأنه عندما يلقى القبض على شاب من المدونين فهو يضمن لك أنه لا شاب آخر سيسعى لانتخابك وعندما يقهر كلمة صحفى فى جريدة يفترض أنها حرة فهو يمنع كل صحفى من إعطائك صوته . وعندما يلقى القبض عل بعض الناس الذين يعتنقون فكراً ما فكل من يعتنق الفكر نفسه لن ينتخبك ... وعندما يسيئون معاملة مواطن فى قسم شرطة فكل من يعرف هذا المواطن لن ينتخبك ... وعندما يهينون مواطناً فى كمين من أكمنة الشرطة فمَنْ مِن أصحاب السيارات سينتخبك . وعندما يتجبرون فى كل مكان فمن هو المواطن المحب للقهر الذى سيعطيك صوته ؟! صدقني لا أحد !!

أمنك يا ريس بأسلوبه الحالى ضدك على طول الخط ويسئ إليك وإلى عصرك وسمعتك وتاريخك فيما بعد ويسئ إلى حسابك أيضاً عند رب كريم ... أمنك يا ريس بما يفعله لا يحميك ولن يحميك وغير قادر على حمايتك ولا حتى على حماية نفسه ...

أنت فقط منحته سلطات واسعة دون أن تربط هذا بحقوق إنسان حتمية متصوَّراً ان فى هذا كل الحماية ولكننا وأنت هنا أمام التاريخ الذى سينصف الجميع ذات يوم والتاريخ ليس أمراً لا تخشاه لأنك لن تعاصره بل هو أمر شديد الخطورة ...

* * *

أمنك يا ريس يتظاهر بحمايتك من اخطار لا توجد إلا داخله وداخل فكره وحده ؛ لأن عمل الأمن ليس مجرَّد عملاً بوليسياً بل هو فكر وثقافة ومشكلة امنك أنه يفتقر إلى الفكر والثقافة وفى غيابهما تصبح فكرة الأمن ممتزجة بفكرة السيطرة والقهر والجبروت .....

الأمن الأمريكى يحمى الرئيس وسط دولة تضم كافة التيارات الفكرية والاتجاهات السياسية فى العالم أجمع ومنها تيارات متطرِّفة واتجاهات عدوانية عنيفة ومنظمات قادرة على قتل الرؤساء أنفسهم لو اعترضوا طريقها ...

وتعداد سكان أمريكا رهيب للغاية ...

ولكنهم يحمون الرئيس ... يحمونه دون أن يسيئوا إلى الشعب بأى حال من الأحوال وإن أساءوا إلى فرد واحد منه فهو يمتلك الحق فى مقاضاتهم ومقاضاة رئيس الجمهورية نفسه ...

يحمونه ليس بجيش من سيارات الأمن المركزى وغابة من الشوم والدروع ومطر من القنابل المسيلّة للدموع بل يحمونه بثقافة مختلفة تماماً .. ثقافة حرية أجبرتهم على

تطوير سياساتهم الفكرية وتأمين حماية تفوق كل ما يمكن أن تؤمنه قوات امنك لك دون ان يشعر بها الناس ... ثقافة ... وفكر ... وحرية ... وكل هذا يصنع أمناً ... فهل ترى فى رجال أمنك شبهاً من هذا ؟!.

هل ترى لديهم ثقافة ... أهناك فى عقولهم فكر ... أى فكر . بخلاف الفكر الأمنى ؟!.. هل قرأ أحدهم كتاباً حديثاً واحداً عن طرق حماية الرؤساء الحديثة ؟!.. وكلمة حديث هنا ربما تعنى انه مطبوع منذ عشر سنوات تقريباً ؛ لأن رجال أمنك يا سيادة الرئيس ... لا يقرأون ولا يتابعون ... ولهذا لا يفهمون !!

ثم أنك منحتهم سلطة تعلو حقوق وحرية الشعب فلماذا يبذلون جهداً إذن ما دامت ليست لهم أيه حاجة إليه ؟!..

إنهم يريدون شيئاً وبدلاً من دراسته فإنهم يمنعون كل ما هو سواه فحسب ...

أمنك يا ريس هو الدب ..... والدب قتل صاحبه وهو يحاول حمايته ...

الناس فى الشارع تلومك على حماقات أمنك يا ريس ... تلومك على كل دقيقة تضيع منهم لأنك ستخرج فى موكبك ... تلومك على كل مهانة تتعرَّض لها من رجل أمن ... تلومك على كل كلمة جارحة تخرج من أحدهم لفرد من أفراد الشعب ...

الناس يا ريس تلومك على غياب حريتها وحقوقها وعلى قهر رجال أمنك لها وغطرستهم عليها وجبروتهم وتنكيلهم بهم ...

الناس تلومك لأنك لا تدرى ... لأنك لا تنظر ... لأنك لا تنزل إلى الشارع بنفسك ولا ترسل عيونك لتتابع ولا تبذل جهداً من أجل راحتهم وكأن هذا الوطن كله لم يعد مسخراً إلا لراحتك أنت وحدك وعائلتك دون سواكم ...

الناس تلومك لو أنك تعلم وترضى وتلومك أكثر لو أنك لا تعلم ولا تعرف ... الناس تلومك على خوفها من رجل الامن بدلاً من لجئوها إليه ... الناس تلومك على ضياع حقوقها فقط لأنها تخشى دخول قسم أي شرطة أو نقطة بوليس...

الناس تلومك ... وتلومك ... وتلومك . وأمنك هو من جعلهم يلومونك وهى خطوة أولى لأن يرفضوك ويرفضوا عصرك كله ...

أنت مسئول عن كل ما يحدث يا ريس ... مسئول عن تجاوزات أمنك ... عن جبروته ... عن خروجه عن مقتضيات وظيفته ... عن تصوّره أنه أمنك وحدك وليس أمن وطن بأكمله ...

والتاريخ إذا ما أدانك بهذا فسيعني أن نسلك من بعدك سيحتمّل اللوم وسيحمله كوزر حتى آخر الناس لا تنسى من أساء إليها أبداً ...

أنت مسئول عنا يا ريس وأنت راع ونحن رعيتك فإما أن تكون مسئولاً عن الرعية أو تتحملّ النتيجة أمام التاريخ وأمام اللّه سبحانه وتعالى ... لقد أبلغناك وسيحجب الأمن عنك ما أبلغناك به حتى يأتى يوم تبلّغون فيه جميعاً ... لكن بعد فوات الاوان !!

* * *

مولانا سيادة اللوا ....

انفض المولد وانتهى شهر رمضان وهدأت معه تلك التعصّبات وشدة الأعصاب وعدنا - كما أتمنى- إلى التفكير الهادئ نسبياً وعلينا الآن أن ننظر إلى الأمور على نحو مختلف ... فعلى الرغم من كل شئ مازلت أرى أن ما قام به رجال الشرطة فى رمضان من اعتقال المفطرين فى الشوارع هو مصيبة كبرى بأى مقياس كان أما لو أنه هناك قانون يبيح هذا فهى لم تعد مصيبة بل كارثة كبرى ينبغى التوقُّف عندها طويلاً بالبحث والتحليل ؛ فما حدث لا يعنى أن بعض الضباط قد استشيخوا فى رمضان وجعلوا أنفسهم رقباء على ضمائر الناس وقرروا محاسبتهم على ما لا يحاسبهم عليه الدين نفسه فى الدنيا ولا يعنى حتى أننا دولة بلغت الحضيض فى إحترام حقوق الإنسان وحريته وصار رجال أمنها سيفاً على رقاب الآمنين بدلاً من أن يكونوا درعاً يصد عنهم الأذى وربما لا يعنى أيضاً أن النظام فاشى ديكتاتورى أطلق العنان لأمنه وحوّل دولته إلى عار بوليسى متخذاً من الرفيق ستالين والجنرال موسولينى والفوهلر هتلر مَثلاً عليا يعشقها ويسير على خطاها إلى الجحيم ...

قد لا يعنى كل هذا بقدر ما يعنى أن الفكر السلفى المتطرِّف لم يعد فكراً تحاربه الدولة وإنما صار السياسة

الرسمية للدولة وتغلّل فى مكاتبها ووزاراتها حتى بلغ أمنها ... وهنا تكمن الكارثة !!

وعندما يخرج علينا مولانا سيادة اللوا ليدافع عمن ارتكبوا هذه الكارثة الحقوقية الرهيبة فهذا يعنى أنه من الأساس لم يقرأ ميثاق حقوق الإنسان ربما لأنه يعتبره وفقاً لنظام الحكم الذى عيّنه من كتابات الخيال العلمى أو مسرحية هزلية تقوم بها النظم للسيطرة على شعوبها ولم يقرأ حتماً أن مُثلهم العليا كلها قد أبيدت وتحوّلت إلى تراب سيتحوّل هو أيضاً إليه ذات يوم وسيقف امام إله عادل وخلفه طابور طويل من المظاليم ينشد كل منهم حقه حتى أن أعمق أعماق الجحيم لن تكفيه وصلاة عمره كله لن تشفع له ليسدّد الحساب إلى كل من ظلمته محاولته للدفاع عن مهووسين يرتدون على أكتافهم نجوم السلطة والطغيان ... وهو لم يقرأ حتماً التاريخ ولم يفهم شيئاً في حياته عن العدالة !!

* * *

فى الجزائر لم ينتبه الرئيس السابق إلى خطورة تغلغل الفكر السلفى فى نظم أمنه وكان واثقاً من أن الأساليب البوليسية كافية لحمايته وكان كل قادة الأمن يتبنون نفس الفكرة الحمقاء التى ترى أن الدفاع عن رجل الامن أهم من الدفاع عن رجل الشارع بل أهم حتى من الدفاع عن الحق والعدل والحرية حتى جاء يوم تسللّت تلك الافكار السلفية

المتطرّفة إلى حارسه الخاص أكثر من يثق به فجاء من خلفه يطلق النار على رأسه وقتله أمام الجميع ...

نتيجة طبيعية لإطلاق يد الامن فى الدولة دون حساب النتائج ونتيجة يمكن أن نصل إليها أيضاً مادام سيادة اللوا قد صار مولانا وصار يتصوّر أن مهمته هى حماية الدين باعتباره رجل أمن لدى الخالق عزّ وجلّ وليس مجرّد أداة باطشة فى نظام ديكتاتورى كما هو بالفعل . حتى ولو حاول إقناع نفسه بغير هذا ...

والهتاف الآن قبل فوات الأوان هو : انتبهوا أيها السادة ... انتبهوا ايها الطغاة الأباطرة الذين سيرميهم التاريخ فى أوسخ مزابله ... انتبهوا إلى أنكم تحاصرون بفكر سلفى دون ان تدركوا ... الآن ستدافعون عن كل من انتهك حقوق الناس وكل من اعتدى على حريتهم وكل من طغى عليهم وغداً سيسلط اللّه سبحانه وتعالى عليكم نفس من تركتموهم يطغون وعلى ايديهم ستكون نهايتكم يا من تتصوّرون أنكم وحدكم دون خلق اللّه جميعاً ستخلدون فى الدنيا والسلطة والجبروت والطغيان ..

دعونى أخبركم بأمر غاب عن أذهانكم من كثرة ما منحوكم من سطوة وقوة وجبروت ... دعونى أنبهكم أنكم مثلنا ... بشر ... ولكنكم على عكسنا ترتكبون ملايين الذنوب وتحاطون بملايين اللعنات وتمتلئ قبوركم من الآن بدعوات ملايين المظلومين وبالمناسبة لن يمكنكم الذهاب للحساب فى الآخرة وأمامكم موتوسيكلات وحولكم تشريفة ولن

تستقبلكم الملائكة بتعظيم سلام ... فانتم مهما كنتم ومهما تصوَّرتم انفسكم ... مجرد بشر !!

* * *

فى دولة مجاورة يقيم رئيس جمهورية صدر ضده حكم بانه مطلوب للعدالة بتهمة انتهاك حقوق الإنسان وعلى الرغم من أنه يخرج بالفعل من دولته إلا أن الدول الوحيدة التى تستقبله هى دول طغاة مثله يستقبلونه فقط حتى تهدأ نفوسهم وحتى يقنعون أنفسهم بأنهم إذا ما صدر ضدهم حكم مماثل ذات يوم يستطيعون الشعور بأنهم مازالوا كباراً ...

ومولانا سيادة اللوا بتجبره وطغيانه وغضبه من كل من أعترض على قهر الحريات وضياع الحقوق الآدمية وترويع الآمنين بإسم الدين والأخلاق والآداب العامة يضع البلاد عند بداية الطريق إلى أن تعتبرنا كل الدول دولة لا ترعى حقوق الإنسان ...

وإذا ظل سيادة الشيخ مولانا اللوا يواصل أسلوبه هذا ويشجِّع ضباطه ولواءاته وحتى مخبريه على انتهاك حقوق الناس فى الشوارع متصوراً أنه الجبار إبن الجبابرة فمن المؤكَّد أن الدول الكبرى ستقرِّر ذات يوم اعتبار رئيس جمهوريته حاكماً لا يرعى حقوق الإنسان وعندئذ لست أظن الرئيس سيكافئه عما فعله ولست أظنه هو نفسه سيتحمل ما سيحدث ...

ومحاولة حماية رجال الشرطة وهم يغوصون فى بركان التطرِّف والسلفية يستحيل أن تسفر عن خير للنظام

نفسه فرجال الشرطة هؤلاء هم من يفترض أن يحموا النظام فكيف سيقومون بحماية نظام يختلفون معه قلباً وقالباً ؟!

المعتاد من الطغاة والجبابرة أنهم قصيروا النظر يصعب عليهم رؤية المستقبل : لأن غرورهم وسطوتهم وجبروتهم يعميهم عن هذا كما أعمى موسولينى وهتلر وصدام حسين من قبل وكما اعمى شاه إيران الذى تجبَّر وتكبَّر واعتمد على نظم أمنه وأجهزته الرادعة ثم راح يلف الدنيا بعدها بحثاً عن مكان يأويه بعد أن خرج مدحوراً إثر ثورة شعبه ... الشعب الذى تغلغل الفكر السلفى فيه حتى غزا أجهزة الأمن القمعية نفسها ...

لو أنه باستطاعتكم فهم المغزى من هذا ... يا عديموا الالباب !!

* * *

شاه إيران لم يكن بالرجل الضعيف بل كان حاكماً صارماً ظالماً متجبراً ومتكبراً وكان مايشجعه على كل هذا الطغيان هو أنه يملك آلة بوليسية قوية وأجهزة أمنية جبارة وأيدٍ باطشة قادرة على انتزاع أى شخص من فراشه فى قلب الليل وإجباره على استكمال ليله فى معتقل المغول ولكنه ومع كل ثقته هذه نسى حقيقة أساسية لست أدرى لماذا تغيب دوماً عن أذهان الطغاة وحتى عن أذهان جبابرة أمنهم .. أنهم يحكمون شعباً يفوقهم قوة وعدداً وإذا ماحاصروه فى كل الأركان وثار فستكون ثورته

أشبه بطوفان جارف سيلتهمهم بكل العنف ويمزقهم بكل الغضب ويذيقهم كأساً أكثر بشاعة مما أذاقوه اياه !!

كل الطغاة وكل نظم أمنهم يسخرون دوماً من كلمات كهذه .. وكل الطغاة دوماً أيضاً يجرعون فى النهاية كأس العذاب من نفس ماسخروا منه ومن نفس الشعب الذى تصوّروا أنهم أقوى منه وقادرين على قمعه فقط بسلطتهم وجبروتهم وتجاوزاتهم ..

ولقد وقع شاه إيران بكل جبروته وأجهزته فى نفس الخطأ الذى يقع فيه الآن مبارك بكل سلطاته ونظم أمنه البوليسية القمعية التى أطلقها على شعبه .. كلاهما وثق فى أمنه بأكثر مما وثق فى شعبه وكلاهما لم يفكّر لحظة فى أن رجال أمنه هم - شاء أم أبى - من نسيج الشعب نفسه ويجرى عليهم ما يجرى عليه وكلاهما تجاهل الدلالات الأوّلية الصغيرة وتصوّر أنها وسيلة لحمايته من شعبه حتى تعاظمت تلك الدلالات وصارت إرهاصات وانقلبت الأمور على شاه إيران ووقف أمنه إلى جوار شعبه ووقف كلاهما فى وجهه واضطر للفرار من بلاده والتضرّع لطوب الأرض ليأويه حتى لم يقبله سوى السادات الذى أتى به إلى مصر ليموت فى مستشفياتها وعلى يد أطبائها ووسط رجال أمنها !!

المشكلة والدرس هنا هو أن رجال الأمن فى النهاية بشر يعودون إلى منازلهم بعد انتهاء أعمالهم ويجلسون مع عائلاتهم وأقاربهم وخلّانهم يتحدثون إليهم ويسمعون منهم .. ويتأثرون بهم أيضاً .. ورويداً رويداً سيتحوّل

بعضهم إلى نفس مايحاربونه وسيهوى بعضهم فى لحظة ما ومع غضب ما أو ضيق ما إلى الفخ نفسه ويتحوّل من مؤد لعمل أمنى للنظام إلى ناقم على النظام وهذا ماحدث بالفعل !!

ولأن نظم الأمن الباطشة فى الدول التى تعتمد على النظم البوليسية كدولتنا هى دوماً نظم عصبية متجبرة معمية بالسلطة الباطشة فكبار مسئوليها يخونون شعوبهم فى المعتاد متصورين أنهم يؤدون واجبهم ولا يفيقون من هذا إلا عندما ينقلب النظام ويواجهون الشعوب ويضطرون فى لحظة أو أخرى إلى تبرير جبروتهم لنفس الشعب الذى تجبروا عليه يوماً ..

هذا ما أخبرنا به وأكّده لنا التاريخ ولكنهم لجبروتهم وجهلهم لا يقرأونه على الرغم من أنهم يكرّرون نفس ماكتبه عن طغاة سابقين كُللوا بالخزي والعار لنفس الأسباب التى رأوا فيها الرفعة والفخار فى ظل نظام طاغ لا يمكن بل يستحيل أن يدوم كما علّم التاريخ أولى الألباب وأصحاب الفكر غير الأمنى !!

وعندما تظهر على بعض رجال الأمن إرهاصات الاستشياخ وفكر التطرّف السلفى يكون من أكبر الأخطاء الفادحة وأكبر حماقات النظام أن يدافع عن سلفيتهم وتطرّفهم وأن يعطى باقى رجال الشرطة انطباعاً بأنه يبارك هذا التطرّف وذلك الاستشياخ البوليسى مهما كانت حجته ووجهة نظره لأن الأمر قد ينتهى به فى غضون سنوات

قليلة إلى حبل المشنقة الذى سيمسك به عندئذ من كان يدافع عنهم ضد حرية شعب بأكمله ...

ولكن لماذا يدهشنا هذا ؟!.. التاريخ يمتلئ بروايات رجال الأمن الحمقى الذين ركبوا غرورهم وتكبّروا وتجبروا بسلطتهم وسطوتهم ثم انتهى بهم الأمر أذلاء فى السجون مكسورين أمام من سبق وأذلوهم يُعَذبون بصراخ ضحاياهم .. ثم ماالفارق بين مافعله السادة الضباط من القبض على المجاهرين بالإفطار ومافعلته الكنيسة الأوروبية فى القرون الوسطى من محاكم تفتيش وتعذيب واتهام بالهرطقة ؟!

ومالفارق بين ما يفعله رجال الشرطة هنا وبين شرطة نظام طالبان فى افغانستان ؟!

وماهى الخطوة التالية التى ستدافع عنها ياسيادة اللوا ؟! إلقاء القبض على من لم يصل التراويح أم اعتقال من تضع عطراً أجنبياً فى الشارع ؟!

ماهى ... ياسيادة اللوا ؟!!!!!!!!!

* * *

الرئيس السادات هو أوّل من أطلق شرارة الجماعات الإسلامية فى مصر بهدف مقاومة المد الشيوعى وتصفيتة ما تبقى من التيار الناصرى وهى سقطة هائلة للسادات لم تعتمد أبداً على المنطق الصحيح والسليم للأمور فالشيوعية والتيار الناصرى هما فى الواقع فكر والتيار الفكرى تمكن مقاومته على مدى قصير نسبياً

بوساطة فكر مضاد أما المد الإسلامى السلفى فهو تيار عقائدى يتم إطلاقه وسط شعب شبه أمي شديد التأثر بالشيطان نفسه لو تحدَّث إليه متقمصاً رداء الدين فما بالك بمن يتصوَّرون أنهم ممثلو الدين ووكلاء الخالق عزَّ وجلَّ على الأرض ؟!

الرئيس السادات أطلق الشرارة ولم يتصوَّر أبداً النتائج ولم يتخيل ان الشرارة ستتحول إلى نار تسرى فى المجتمع وتتغلغل فى كل فئاته من عامل النظافة وحتى رجل الأمن نفسه ...

ولأنه لم يضع هذا فى اعتباره ولأنه لم يحذر نفسه منه منذ البداية ولم يتخذ الحيطة لمواجهته فقد التف الفكر السلفى حول عنقه هو دون أن ينتبه وقطعها فى عرض عسكرى وهو يجلس وسط جيشه محاطاً برجال أمنه وحرسه الشخصى !!

وفى تصريح تال . بعد سنوات طوال من إغتيال السادات شاهدنا وزير أمنه بالصوت والصورة وهو يصرِّح بأنه كان يعرف بمؤامرة الإغتيال ولكنه لم يستطع فعل شئ !!

الأمن عُرف إذن ولم يُفعل شيئاً ولم يفد بذرة وتم إغتيال الرئيس : لأن وأمنه وجبروتهم لم ينتبهوا إلى خطورة تغلغل التيار السلفى المتطرف فى كل شئ ... حتى الأمن ...

الكل تجاهل مستصغر الشرر حتى صار ناراً التهمت رأس النظام نفسه والأمن لم ينقذه إما إهمالاً أو غروراً أو تجبراً وتكبراً جعلاه يغتر بقوته ويعمى عينيه عن قوة خصمه ...

المهم ان ما حدث للسادات أثبت انه لا أمان للأمن لو لم يحترس هو نفسه لنفسه وأن الدفاع عن المخطئ ضد شعب بأكمله ينتهي دوماً بكارثة ... أمنية ... يا سيادة اللوا!!

* * *

منذ عام أو يزيد وفي مقابلة صحفية سمعنا أن رئيس مخابرات سابق كان يتخذ من الرئيس عبد الناصر لعبته عبر فكرة الأمن وكان يتباهى ضاحكاً وساخراً بأنه يستطيع منع الرئيس من النوم في فراشه لو أراد فقط بإيهامه بأنه هناك مؤامرة تحاك ضده وأن الأمن يفعل هذا فقط لحمايته..

سمعنا وقرأنا وشاهدنا هذا التصريح وتحسَّرنا على الرئيس جمال الذي كان بالنسبة لنا رمزاً للمهابة والقوة وعلى ما أصابه على يد أمنه الذي تصوَّر أنه يحميه ثم ثبت له فيما بعد ومع نكسة يونيو ١٩٦٧م أن الشعب وحده من يحميه وعندما يقف معه فما من قوة ستجرؤ على الوقوف ضده أو العبث به ...

فقد ناصر هيلمانه وهو منتصر : بسبب أمنه وإستعاده وبقوة وهو مهزوم مع وقفة شعبه ... نفس الشعب الذي تجبَّر عليه الأمن وتكبَّر وألقاه في السجون والمعتقلات وعذبه وأحرقه وقتله ...

ورجال الأمن الذين كانوا يتباهون بسطوتهم وقوتهم في عصر . صاروا رمزاً للجبروت والطغيان في عصر تال وصار

أحفادهم يجنون هامتهم خجلاً منهم وذلاً وعاراً من تاريخهم الذي تصوَّروا أنهم يبنون به مجدهم وجبروتهم ...

وهذا بالضبط ما سيحدث لكم يا سيادة اللواء إذا ما استمريتم طغاتكم والمتجاوزين منكم وبعتم شعبكم وحريته وحقوق أدميته ... التاريخ لن يرحمكم والمستقبل لن يُنصف نسلكم وستصبحون ذات يوم مثالاً للطغيان والديكتاتورية وهذا ما حدث ويحدث منذ الأزل ... الآن أنتم أقوياء وغداً نسلكم أذلة بسبب ما تفعلون ويبقى وجه اللّه سبحانه وتعالى وحده يعزَّ من يشاء ويذل من يشاء ويؤكد أنه من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ثم أتيتم أنتم بطغيانكم ورفضتم ما قاله الخالق عزَّ وجلَّ ورأيتم أنفسكم أكثر جبروتاً منه والعياذ باللّه ومن شاء فليصُم ومن شاء أن يفطر ففي السجن ... يا سيادة مولانا اللواء ... ولنا رب يستجيب له دعاء المظلومين ... عليك !!

* * *

صورة يا جهلية .....

مجلة ناشيونال جيوجرافيك الشهيرة وقعت فى خطأ كبير وأقامت مسابقة للتصوير الضوئى فى مصر وهذا - على حد قولها - لنشر هذه الهواية الفنية فى المجتمع المصرى والعربى ... والتصوير بالتأكيد هواية جميلة وانتشارها بين الشباب يعنى أن يلتقطوا عشرات الصور الجميلة لوطنهم ويدركون مواطن الجمال فيه كما وسيستهلك هذا الكثير من اهتمامهم مما يصرفهم عن أمور أخرى خاطئة واهتمامات مغايرة سيئة ولكن الخطأ الكبير الذى وقعت فيه المجلة العالمية هو أنها لم تدرك أننا فى مصر دولة بوليسية من الألف إلى الياء وأن وزارة الجهلية (الداخلية سابقاً) لم يصل إلى علمها بعد أن التصوير الفوتوغرافى فن قديم جداً أشار إليه فى البداية سير (جون هيرشل) عام ١٨٣٩م . ولكنه يستخدم فعلياً منذ عام ١٨٢٢م بواسطة الفرنسى (نيسيفور نبسى) ولأن هذه معلومات صعبة على ثقافة وزارة الجهلية المحدودة فيكفى أن أقول أن كل عيّل يحمل الآن فى تليفونه المحمول كاميرا تصوير فوتوجرافى رقمية وكاميرا فيديو وجهاز تسجيل وبلاوي سوداء ولكن المشكلة أن ثقافة وزارة الجهلية ومسئوليها توّقفت عند الثانوية العامة التى لم يدرسوا فيها شيئاً عن التكنولوجيا (أو كانوا أدبى على الأرجح) وبعدها اقتصرت ثقافتهم على كيفية التعامل مع المجرمين وكيفية اعتبار

الشعب كله مجرمين : لحماية العائلة المالكة وحدها وكيفية العبودية لنظام وتقبيل نعل جزمته والسعى لنيل رضاه طوال الوقت على حساب الشعب ... كل الشعب فيما عدا المسنودين طبعاً ثم أن الأمن فى مصر مصاب بحالة هلوسة أمنية تطوّرت فيما بعد إلى هوس أمنى ثم إلى هستيريا أمنية تحتاج بالفعل إلى طبيب نفسى لفحصها وتحديد العلاج المناسب لها ولأن وزارة الجهلية لا صلة لها بالتطوّر والثقافة والتكنولوجيا ربما لأنها تصوّرت أن كلمة تطوّر جاءت من الطور وليس من التقدّم فرجالها يتعاملون مع كل من يحمل كاميرا تصوير باعتباره عدواً ويريد شراً بالبلد ويهاجمونه ويمنعونه دون أدنى سند قانونى أو دستورى لأن الدستور يعطى المواطن حرية التعبير والصورة الضوئية هى وسيلة من وسائل التعبير ...

* * *

نظرية الأمن فى مصر هى أن كل الشعب أعداء ؛ ربما لأن الأمن يتصوّر أن مهمته الرئيسية هى حماية النظام الحاكم والعائلة المالكة وليس حماية الشعب الذى يدفع عملياً مرتباته وبدلاته لذا فهو يعتبر أن كل من يمسك كاميرا يريد بها حتماً شراً أو سيلتقط صورة تسئ إلى البلد وكالمعتاد فبدلاً من محاولة إصلاح البلد يمنعون تصويرها فحسب على الرغم من أن من يريد نشر الغسيل الوسخ قوى للبلد وهو منتشر فى كل مكان لن يحتاج إلى حمل كاميرا والتعرّض لسخافات ضباط الجهلية الذين لم

يتلقوا أية دورات تدريبية فى كيفية التكيف مع القرن الحادى والعشرين فأجهزة التصوير الرقمية الدقيقة صارت منتشرة على نحو يصعب منعه أو السيطرة عليه وبعضها يصل حجمه إلى حجم رأس دبوس صغير فهناك آلات تصوير فى أقلام وولاعات ونظارات شمسية وساعات وحتى فى أزرار قمصان وتوك أحزمة ... باختصار من يريد فضحكم وتجريسكم لن يغلب ولن يتعب فى فعل هذا فاجعلوها تجميلة وتظاهروا بأنكم تفهمون ولديكم وعى وثقافة واتركوا طلبة الفنون التطبيقية يحملون آلات التصوير ذات العدسات الكبيرة التى تثير رعبكم يمارسون ما تقتضيه دراساتهم دون عرقلة وسخافات وقلة أدب أمنية وأظن أن تجريسكم أمر بسيط لو أن كل ما تمارسون عليه هذا القمع الجاهل الغبى أرسل رسالة عبر البريد الأليكترونى إلى مجلة ناشيونال جيوجرافيك راعية المسابقة وأبلغها بما يفعله الامن فى مصر فيمن يمسك كاميرا تصوير ويحاول التقاط صورة لآثار بلاده أو الأماكن الجميلة فيها وستنشر المجلة الخبر وبجواره علامة استفهام بحجم صفحة وستنقل عنها صحف العالم الأمر مذيلاً بالسخرية من الامن المصرى ومن النظام المصرى كله الذى دخل القرن الواحد والعشرين كديناصور أتى من قبل التاريخ ومازال يخشى مجرد الصورة!!!

وقبل أن تعترض العلاقات العامة للوزارة وتؤكّد أن هذا لا يحدث أبداً وأن الشرطة لا تعترض المصورين وطلبة الفنون

التطبيقية ولن تعترض سبيل المشاركين فى المسابقة دعونا نعرض بعض النماذج ...

* * *

أحمد ضرغام . شاب مصرى مغرم بالتصوير الفوتوجرافى انبهر بتصميم المتحف المصرى ورأى عشرات الأجانب يلتقطون الصور له فأخرج كاميرته والتقط صورة للمتحف المصرى و ..... وهنا انقض عليه ضابط أمن توقَّفت ثقافته على الأرجح عند ميكى وسمير . وصرخ فى وجهه وكأن أحمد قد أرتكب جناية كبرى واختطف منه الكاميرا وأصر فى شراسة على أن يمسح أحمد الصورة بدلاً من أن يسحبه إلى القسم ويلقنه درساً على حد قوله ولقد مسح أحمد الصورة ثم عاد بعدها بكاميرا صغيرة والتقط للمتحف عشرات الصور والغضنفر لا يدرى . وقفاه لا يشعر بالأفلام التكنولوجية التى أنهالت عليه لأنه تقمَّص شخصية دون كيشوت وحارب طواحين هواء أهدرت وقته وطاقته دون ان تحقق أدنى طائل من خلفها ؛ لأنه لو كان أحمد يضمر شراً فلن تمنعه قلة أدب وزارة الجهلية على بعضها وسيلتقط ما شاء من الصور ...

وعلى موقع (فيس بوك) توجد مجموعة أطلقت على نفسها اسم (إن فوكس) (in focus) . ولقد تكونت هذه المجموعة احتجاجاً على رجال الأمن الذين يواجهون التصوير الفوتوجرافى فى شراسة وكأنه سلاح بدون ترخيص وطبعت

هذه المجموعة كومة من التيشرتات عليها شعار خاص بها عبارة عن آلة تصوير يحيط بها شعار ممنوع الدخول والشعار ممزق دلالة على أنهم سيقاومون هذا الجهل بكل قوتهم وستنزل هذه المجموعة مرتدية التيشيرتات الخاصة بها للتصوير فى مصر وخلفها مجموعة متخفية تحمل كاميرات غير مرئية لتصوير كل ما سيفعله معهم رجال الامن وعرضه على شبكة الأنترنت : ليرى العالم كله جهل الأمن المصرى وهستيرته التى ستستنفذ جهده فيما لا يفيد فى نفس الوقت الذى يشعر فيه كل مواطن بانعدام الأمن من حوله لأنه ليس من النظام السياسى الحاكم ولا من الاسرة المالكة وعبيدها ... وبالمناسبة . عنداً فى غضنفر المتحف المصرى سيلتقط الشباب ألف صورة للمتحف من كل ناحية وينشرونها على النت مع تحياتهم لوزارة الجهلية!!

* * *

بدون مبرِّر ولمجرَّد الهستيريا الأمنية وجهل النظام الامنى يُدخل الأمن نفسه فى معارك سخيفة تلهيه عن أداء دوره الفعلى فى حماية المجتمع والشعب ... ولأن الشعب وبالذات الشباب لم يعد يحتمل هذه السخافات غير المبرَّرة فالتوترات بينه وبين الأمن تتصاعد كل يوم وإن لم يتوقف طغاة وزارة الجهلية الذين أصبحوا ديناصورات أمنية لا تتبع حتى قواعد الأمن الصحيحة بقدر ما تتبع قواعد جنون أمنى هسيرى من استفزاز الناس فى الفاضية والمليانة

فستشتعل الامور فى هذا البلد وسيفقدون السيطرة عليها إن عاجلاً أو أجلاً ...

لاحظوا أن عنف التظاهرات يتزايد بتدخل رجال الامن وأن نسبة إصابات رجال الشرطة ترتفع وستواصل الارتفاع مادامت السلطات الأمنية تتعامل بهذا الجهل الامنى ...

والأمن أيها السادة ليس هلوسة أو هستيريا أو حتى وجهات نظر ... الأمن علم مثل أى علم ولو أن جهلكم جعلكم تنفصلون تكنولوجياً عن الزمن الذى تعيشون فيه فهى مصيبة وكارثة وداهية سوداء أن يمتد جهلكم إلى النظريات الامنية نفسها كما امتد إلى شعار الشرطة نفسه الذى غيَّره أحد العباقرة بجهله المطبق من الشرطة فى خدمة الشعب إلى (الشعب والشرطة فى خدمة الوطن) لأنه لم يدرك وهو يفعل هذا أن هذه مخالفة دستورية صريحة مما ساعد المحامى نبيه الوحش على الحصول على حكم قضائى يلزم جهاز الشرطة بإعادة الشعار القديم وربما يدفعنا هذه إلى أن نطلب منه رفع قضية جديدة لإجبار الشرطة قضائياً على عدم التعرَّض لمن يمارس هواية التصوير فى مصر وفقاً لنص المادة (٤٩) من الدستور المصرى والتى تقول صراحة

" تكفل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمى والابداع الادبى والفنى والثقافى وتوفر وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك " ... فما هى الوسائل اللازمة هذه فى نظر وزارة الجهلية ؟! الضرب على القفا أم بهدلة كل من يمارس حق

الإبداع الفنى والأدبى ؟! ثم أين وزارة الثقافة ووزيرها وأين سيدَّة مصر الأولى ؟!! مجرد سؤال !!

* * *

المفترض أن التصوير الفوتوجرافى وسيلة فنية وثقافية وتقام له معرض ومسابقات عديدة فى مصر وهذا يدخله ضمن اختصاص وزارة الثقافة ولما كان الأمر كذلك فلماذا لا تدافع وزارة الثقافة عن الثقافة والفن ولماذا لا يتدخَّل المجلس الأعلى للثقافة والفنون لمنع الأمن من جبروته الجاهل أم أن أمر مصر كله صار فى يد أمن متخلِّف يفهم فى التجبر أكثر مما يفهم فى التطوَّر ؟!

المسألة فى رأيى بسيطة جداً لتنقل مصر وأمنها بقفزة واحدة وفى أقل من أربع وعشرين ساعة إلى مجال احترام فن التصوير الفوتوجرافى ودفع رجال الشرطة والأمن للابتسام فى وجوه المصورين ودعوتهم إلى الشاى أيضاً فيكفى أن تعلن سيدَّة مصر الاولى باعتبارها راعية للثقافة أنها سترعى مسابقة التصوير الضوئى فى مصر لأنه ما أن يوضع اسمها على مسابقة كهذه حتى ينحنى رجال الأمن ويبوسون الأقدام ويلبون فى خضوع أوامر مصر وسيدَّة مصر وأنا هنا أطالبها بهذا رسمياً مادامت تعتبر أن التصوير هو فن وثقافة مثله مثل باقى الفنون والثقافات التى تضع اسمها لرعايتها وادعوا كذلك أمين لجنة السياسات إلى التفكير فى هذا الأمر بعقل وموضوعية

يناسبان سنوات عمره الشابة وإقرار سياسة منطقية تستند على أن منع التصوير صار مستحيلاً فى ظل التطوَّر التكنولوجى السريع الذى أضاف كاميرات تصوير إلى كل شئ فى الحياة حولنا ...

وأدعوا وزير الداخلية ومسئوليها إلى دراسة هذا الامر الذى يستفز الشباب ويثير حفيظتهم ويضاعف من كراهيتهم للأمن والنظام والبلد كله دون أى طائل ...

يا مسئولى الأمن ورجاله ومعاونيه إما أن تدركوا أنكم قد دخلتم القرن العشرين وأن التطوَّر له مقوماته وأن التصوير علم وفن وتجارة ضخمة يتم فيها تداول مليارات الدولارات سنوياً وأنه من العبث والحماقة منع التقاط صورة لمكان ظاهر مهما بلغت سريته واهميته وإلا فأنا ادعوكم إلى أن تتخذوا شعاراً لكم الأغنية الشهيرة ... بحبك يا حمار !!

* * *

دستور يا أسياد ...

الحديث عن مشكلة وزارة الجهلية مع التصوير الفوتوجرافى تعدُّ مجردَّ مقدمة لمشكلة أكبر لا تخص الأمن الهستيرى وحده ولكنها تمتد إلى العلاقة الدستورية بين الأمن والمواطن وبين النظام كله من الرأس إلى الأذيال وبين هذا الشعب والدستور الذى يحكم الجميع (كما يفترض) ... فعندما تتجاوز الشرطة تلك المادة الدستورية التى تبيح للمواطن (أى مواطن) حق البحث العلمى والأبداع الفنى والأدبى وعندما تتحول من خادمة وحامية للشعب إلى سيف سلّط على رقبته وسلاح موجه إلى حريته وإبداعه على الرغم من أن الدستور حددّ حتمية أن توفر الدولة السبيل وعندما يطارد رجالها كل فكر وكل إبداع تكون بهذا قد خالفت دورها الذى حددّ الدستور صراحة بأنه خدمة وحماية الشعب مما يسقط عنها الشرعية الدستورية ويسقط هذا بالتالى عن النظام الذى يعتبرها يده الباطشة وسبيله إلى استمرار احتلاله لمقاعد السلطة واسلوبه المثالى فى تزوير الانتخابات ومنع الناس من الوصول إلى صناديقها ما لم يكونوا من رجال الحزب الحاكم أو الحكومة ...

ولأن وزارة الجهلية ديناصورات لا تدرك ولا تفهم عن الأمن سوى نظرية الشومة والبلطة التى اعتمد عليها من قبل نظام لويس التاسع فى فرنسا وايفان فى روسيا والشاه فى

ايران وديكتاتور البوسنة ولأنها قد أصبحت بمخالفتها الدستورية غير شرعية أصبح حقاً للمواطنين مقاومتها طلباً وحماية لشرعيتهم وأمنهم وأصبح من الواجب دستورياً عزل المسئولين عنها قبل أن تؤدى سياستها إلى مزيد من العنف الذى يتصاعد بالفعل يومياً كلما حدث احتكاك بين الشعب والشرطة والذى سيظل يتصاعد حتى يصبح رجل الشرطة فى الشارع هدفاً لكل غاضب مقموع لم يعد لديه ما يخسره بعد أن أغلق عليه الأمن الهستيرى لوزارة الجهلية كل منفذ طبيعى للحياة .....

ولأن وزارة الجهلية كأى جاهل سياسياً لا تعرف فى الدنيا سوى سياسة القوة فهى لن تحترم الدستور والقانون وستضرب ببنود الحريات الحائط وسترفع الشومة والبلطة...

* * *

وزارة الجهلية كأى نظام جستابو لا تعرف الحكمة والعقل ؛ لأنهما يتعارضان مع الجهل وغطرسة القوة. لذا فعندما تتصاعد موجة العنف ضدها ستلجأ كعادتها إلى الشومة والبلطة مؤكدة أنها تفعل هذا لحماية الأمن واستتباب النظام وهنا سيعيد التاريخ نفسه والتطورات فى الشارع تنبئ بهذا – لأولى الألباب – وسترتفع حدة الغضب والعنف وليس العكس وكما فعل لويس السادس عشر والامبراطور ايفان رومانوف وشاه إيران وديكتاتور البوسنة وطاغية رومانيا ستقوم قوات النظام بمزيد من القمع والعنف والشراسة ثم ستدرك فجأة بعد فوات الآوان

بأن الشعب يفوقها بكثير وأنها كلما لجأت إلى مزيد من العنف والتعنت والقهر ضمت شريحة جديدة إلى كارهيها ورفعت حالة العنف أكثر وأكثر ....

وفى النهاية لن يحدث سوى أمر من اثنين. إما أن ينهار النظام فيتحول رجال الامن إلى مجرمين تطاردهم القوى الشعبية انتقاماً مما ذاقته على أيديهم. أو يأتى فيما بعد من يحاكمهم على جرائمهم التى سيؤكدون لحظتها أنها كانت بأوامر من السادة ولن يستمع إليهم أحد كما حدث مع جبابرة أمن من قبلهم ليس فى العالم ولكن فى تاريخ مصر نفسها....

ولأن وزارة الجهلية وزارة البلطة والشومة فإنها لن تقيم وزناً لهذه الكلمات ولن يعنيها أنها تخالف دورها الدستورى ولن يعنيها حتى أن تكون فاقدة للشرعية الدستورية بل ستعتمد على أن النظام نفسه يحميه وستتصور كما تصور جبابرة نظام صدام حسين أن النظام باق إلى الأبد ولن ينهار أبداً وسينتهى بها الأمر إلى ما انتهى إليه أمر جبابرة صدام الذين ما أن انتزعت منهم السلطة والبلطة والشومة وانهار النظام حتى رأيناهم على شاشات التليفزيون أذلاء شاحبى الوجوه يرجفون أمام قضاتهم ويحاولون فى استماتة إثبات انهم أبرياء مما اقترفوه ويلطمون الخدود لأنهم ذات يوم وثقوا فى أن الدوام ليس لله سبحانه وتعالى وحده ...

* * *

مخالفة وزارة الجهلية للقانون والدستور من منطلق الهيستريا الأمنية التى أرجو أن يتطوّع أطباء نفسيون شجعان بتقييمها علمياً ونفسياً ليست كارثة كبيرة بالنسبة لها؛ لأن النظام الحاكم نفسه لا يحترم القانون والدستور على عكس ما يوحى ويؤكّد فرئيس الدولة نفسه أقسم فى كل مرة يُجددًّ فيها ولايته على احترام الدستور والقانون ثم سعى لتغيير الدستور بما يحقق أمنه الخاص ولم يعرف منذ أول ولاية له من ثلاثة عقود وحتى هذه اللحظة سوى قانون واحد وهو قانون الطوارئ.....

وإذا كان رب البيت بقانون الطوارئ قانع. فشيمة وزارة جهلية أمنه كلها الرقص .... هذا أمر طبيعى ولكن الوزارة قررّت أن تضيع جهودها فيما لا يفيد ونسيان الأمن الفعلى من باب هيستيريا الحفاظ على النظام لذا فالشعب سيحافظ على حريته بنفسه وفى انتخابات الرياسة القادمة سينتشر العديدون فى كل مكان حول مناطق صناديق الانتخاب وسيسجلون بالصوت والصورة عبر آلات تصوير دقيقة لا يمكن كشفها إلا لو أصيب الأمن بمزيد من الهستيريا وخلع ملابس الناس ملط فى الشوارع متشبثاً بسطوته وهذا ما سوف تلتقطه آلات التصوير أيضاً كما وصلنى عبر البريد الاليكترونى وستنقل الصور للعالم أجمع ليعلم ماذا يحدث فعلياً فى الانتخابات التى يقال أنها ديموقراطية فى مصر .... ولا تلومن سوى أنفسكم فقد أشعلتم معركة بلا هدف ولا فائدة والمقاومة هى النتيجة الطبيعية لهذا ... حاربت ابداعاً بسيطاً فتحول بالفعل إلى

سلاح سيصيبكم مع تطور التكنولوجيا الرقمية بهستيريا حقيقية وربما بالجنون أيضاً. وكالمعتاد ووفقاً لسياسة الشومة والبلطة ستحاولون جاهدين مقاومة هذا وستنتشر السرقات والحوادث وأنتم غير متفرغين لمقاومتها بسبب التهاب عقولكم بالبحث عن سبيل لمقاومة الفضيحة القادمة ....

* * *

على الرغم من كل ما بذلته من جهد ومحاولات وعلى الرغم من أننى قد قضيت ربع قرن من عمرى فى قراءة ودراسة نظريات الأمن من عمل خفير الدرك وحتى فن حماية الرؤساء لم أستطع أبداً فهم السياسة الأمنية لوزارة الجهلية المصرية فصحيح أن جزء من سياسة أى أمن فى الدنيا هو الاستعراض الأمنى ومحاولة القيام بلعبة مزدوجة تستهدف من أحد جوانبها إظهار مدى قوتها للشعب وإثارة خوفه ورهبته وتستهدف من الجانب الآخر إثبات قوتها للقيادة السياسية حتى تواصل الاعتماد عليها ولكن حتى هذا يمكن ممارسته بأسلوبين. أسلوب العلم الهادئ وأسلوب الجهل الهستيرى ....

أسلوب العلم الأمنى هو دراسة كل موقف من حيث ما يؤدى إليه سلبياً أو إيجابياً من منطلق أن السيطرة التامة على أى شئ أمر مستحيل إلا إذا ركَّزت اهتمامك فقط على ما يفيد فعندما تطلب من رجل مباحث ان يطارد المصورين ويقف فى كمائن ويحلق فى وجوه الناس نصف

اليوم فقدراته البشرية نفسها عاجزة عن تطبيق هذا بالأضافة إلى أنه سيفقد قدرته وتركيزه على القضايا الأمنية الفعلية أو سيصبح مع الجهد والإرهاق شديد العصبية والتوتر وسيعكس هذا شاء أم أبى على كل من يتعامل معه من مواطنين ....

بعض رجال الشرطة يحاولون التغلب على هذا عن طريق المخدرات ووزارة الجهلية نفسها تعرف هذا وتقوم بعمل تحاليل مفاجئة عشوائية لهم حتى تستبعد من يلجأون إلى هذا من رجالها وهو فى الواقع تصرُّف إيجابى تشكر عليه ولكنها يمكن أن تحل الامر علمياً أيضاً عن طريق تركيز جهود رجال الأمن فيما يفيد فحسب دون مخالفات دستورية أو تعنتات أمنية أو خلافه. وهذا بالطبع سيعيد إلى الشعب بعض الثقة فى رجال الشرطة وسيحسن العلاقة بينهما قليلاً وسيقلل حتماً من موجة العنف التى تتصاعد دورياً .... وهذا بالطبع حديث لقوم يتفكرون ولكن الوزارة حتى الآن تعتمد أسلوب الجهل الهستيرى ....

سؤال هام جداً موجّه إلى النظام الحاكم وكل الأجهزة الأمنية فى مصر التى لم تعد محروسة لأن حاميها (كما يفترض) لم يعد يحميها ... بل يقمعها ...

هل تعتقدون حقاً أنكم سلطة شرعية ؟!... أنا واثق مثل كثيرين أنكم أنتم أنفسكم تدركون. بل واثقون من أنكم لستم كذلك ... فلو أنكم ترون أنفسكم سلطة شرعية مختارة من الشعب كما يقول الدستور وعبر انتخابات

حقيقية نزيهة لم يتم تزويرها أو تزييفها أو غلق بعض لجانها ومنع غير الحزبيين الوطنيين (إسماً) من الوصول إليها وتغيير نتائجها خشية أن تغضب الحاكم بأمره لما كنتم بهذا الجهل وهذه الهستيريا المذعورة منذ استيقاظكم من نومكم وحتى تؤرقكم كوابيسكم فى الصباح والمساء ...

فالامر العجيب فى الدنيا هو أن من يمسك الكرباج يكون دوماً أكثر توتراً وذعراً واضطراباً نفسياً ممن يتلقى ضرباته؛ لأن المضروب يعتاد الضرب ويألفه وربما يخضع له أو يصبر عليه ويتعايش معه ولكن الضارب يظل يخشى لحظة تمرّد المضروب وثورته وانتقامه دوماً ولشدة خوفه من هذا تزداد شراسته ووحشيته فى التعامل مع المضروب يوماً بعد يوم ومعها يزداد رعبه هو من لحظة الثورة .... ولأنه جاهل ومحدود التفكير ومصاب بلوثة هوس السلطة فهو لا يحاول أبداً تهدئة الأمور ولا اتباع الصحيح الذى لا يصح سواه طال الزمن أم قصر. وإنما يصاب بلوثة من شدة خوفه فيضاعف من شراسته ووحشيته حتى تنتهى الأمور تلك النهاية التى لم يشهد التاريخ سواها منذ الازل والتى يتصوَّر كل الطغاة أنهم قادرون على تغييرها والتى لا يدركون أنها حتمية إلا فى لحظتين لا غير .... لحظة السقوط والذل والهوان ودفع الثمن فى الدنيا ولحظة وقوفهم أمام خالقهم عزّ وجلّ والتى سيدركون فيها أن التعذيب والقهر والارهاب والإيذاء والتعنت لم يكونا أبداً من ضمن واجباتهم : لأنها كلها بالفعل أمور يحاسب ويسجن وربما

يعدم بسببها أقران لهم فى دول أكثر تحضراً تعرف حقاً معنى الحرية والدستور واحترام القانون ...
لحظتها يدركون ويثقون فى أنهم مهما فعلوا وتوحشوا وطغوا فمصر لم تكن ولن تكون أبداً .... أبداً.... عزبة أبوهم .

* * *